ثعالب الكُهّان

في بلاط السلاطين

رواية

د. عبد الكريم عائض الشهراني



ثعالب الكهان
في
بلاط السلاطين

رواية

د. عبدالكريم عائض الشهراني

الطبعة الأولى

1423هـ - 2012م

عبدالكريم عائض الشهراني 1432هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الشهراني، عبدالكريم الشهراني

ثعالب الكهان في بلاط السلاطين. / عبدالكريم عائض الشهراني –

الدمام 1432 هـ

..ص ، .. سم

ردمك: 978-603-00-8008-3

1 – القصص العربية – السعودية أ، العنوان

ديوي 039531 ، 813   1432 / 7400

رقم الإيداع 7400 / 1432

ردمك: 978-603-00-8008-3

دار الكفاح للنشر والتوزيع   AL-KIFAH PUBLISHING HOUSE

الدمام   DAMMAM

إهداء

في كل صقاع الدنيا

إلى كل سلطان متقدس ببركة الكاهن

وإلى كل كاهن يحكم بسيف السلطان

وإلى كل شعوب هؤلاء

بكل الأسى والأسف

أهدي هذه الرواية

ألقى إبراهيم جذعه على ظهارة الأريكة ومسندها ومنح جلساءه ابتسامة امتنان أنهكتها الأحداث لكن عذوبتها تكاد تقطر من شفتيه.

متوسط القامة، ثاقب العينين، كأنهما ألماستان تنبعث منهما شرارات الذكاء والحيوية، أبيض البشرة، لكن بقعاً سوداء ما زالت تلطخ أجفانه وتجاويف عينيه وتحت شفته السفلى.

له أنف مدبب وفم متوسط الاتساع، ولحية سوداء قصّرها الحلاق الذي زيّن رأسه لتغطي شيئاً من البقع التي تلطخ أسفل فكه وعجزت عن إزالتها مواد التنظيف.

كان في حركة عينية شيء من الغرابة تبدو لأولئك الأصدقاء الذين يتابعون حركاته مثلما يتابعون ألفاظه.

أمضى سنوات في مشاة البحرية ثم خرج منها مفتوناً بتخصصه. والسفر من أجله.

لم يكن في حديثه متعجرفاً بقدر ما هو مزهو بعض الشيء بمغامراته والأحداث التي صنعها خلال أسابيع قليلة يعتبرها نصف عمره الحقيقي كما يقول.

وفي صمت خيم على الجميع بدأ حديثه بنحنحة خفيضة إيذاناً بتشنيف الأسماع بحكايته الطويلة .

١

نزلت في فندق (تاغان) وهو فندق متواضع إلى حد ما يقع في ناصية الشارع الكبير المؤدي مباشرة إلى ساحة المدينة، لكنه يعتبر عندهم فندق الأثرياء لا يسكنه إلا سائح غبي تغرّه المصابيح أو عريس غني يقضي فيه أحلى لياليه البيض الأولى إن وجدشيءأبيض في هذه الديار، اعذروني أنا لا أنتقص من السواد فالعنبر أسود والسواد جمال آخر، كنت قد اقتنعت نفسي قبل أن أنطلق من هنا أنني أشجع عالم اجتماع عرفته البلاد، فالعالم يجب أن يكون شجاعاً أو هكذا أظن. بغياب حكمة عاهدت نفسي أن أكون أحد أولئك المستكشفين الشجعان الذين خاطروا بأنفسهم في تلك القارة السوداء، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر.

كانت هيئتي تفضح الكثير من داخلي لكنني بالفعل كنت أعزز نفسي بالأثر الذي يقول: إنما الحلم بالتحلم، وأزيد وإنما الشجاعة تكون بالتشجع لا بالتشجيع.

لعلي لا أعرف الخوف كثيراً في بلادي هذه أو حتى في بلادي الأصلية، كما لم أكن شديد الخوف في أماكن بدائية أخرى كنت قد زرتها في رحلاتي السابقة لكن كانت حدة العيون ونظرات بعض الشباب الفقراء التي كانت تمسح جسدي من أعلاه إلى أسفله وكأنها تصورني بالماسح الضوئي هزت شجاعتي.

لم تكن ابتسامات الشباب الساذجة على قارعة الطريق تطمئنني لولا أنني كنت لا آبه بها أو قل على الأقل كنت أتظاهر بذلك.

طلبت من مدير الفندق وهو رجل في منتصف العمر ودود وخفيف الظل، أن يوفر لي من جهته سائقاً ومترجماً يعرف اللغات المحلية ولديه سيارة قوية وذات موديل حديث. وعلى الرغم من إلحاحه في السؤال عن وجهتي المقصودة إلا أنني أظهرت له عدم رغبتي في ذكر الوجهة التي أريدها، وكأني سأكتم سري الذي طالما يضيق به صدري، وبعد جدال استطعت أن أقنعه بأنني سوف أخبر السائق وأفاوضه بنفسي.

وبالفعل فلم تمض سوى ثلاث ساعات حتى طرق باب غرفتي شاب في الثلاثينيات من عمره، يتمتع ببشرة أقل سواداً من بشرة المدير، ملامحه كانت أكثر راحة مِن مَن حولي، حتى إنني خلته هجيناً من بلاد أخرى.

كانت ابتسامته التي افتر ثغره عنها واسعة على قدر فمه بينما كانت أسنانه الناصعة تسطع بأريحية مبالغ فيها.

طلبت من المدير أن يعطيني صورة من جواز سفره، فلم يمانع بل تصرف وكأن الأمر روتيني فخاطبت السفارة وأرسلت إليهم عبر الفاكس خطة سيرنا مع صورة جواز السائق ومعلومات كاملة عن الفندق الذي ننزل فيه، إلا أن الفتاة التي خاطبتني في السفارة حذرتني من شدة المخاطرة في هذه المنطقة أما النزل فإنه معروف وموصى به.

اتفقت مع السائق على وقت التحرك من الفندق وهو في الصباح الباكر من يوم غد وقبل شروق الشمس على الأقل بنصف ساعة، وهو الذي أشار علي بذلك فوافقته، وقد سرتني إجادته للغة الإنجليزية بشكل جيد، وكنت قد أسررت له بكل صراحة عن وجهتنا، فاستغرب أن أكون عربيّاً مستكشفاً، فهو لا يرى في السياح والمستكشفين إلا أبناء العم سام، لأنهم أكثر علماً وتضحية من أجل العلم إلا أن جنسيتي الأمريكية قد قللت من استغرابه. وكأن الأمريكان عنده جوقة من العلماء.

وكنت قد هممت أن أفيده مما أفادني الله به من العلم الجزيل بالتاريخ العربي التليد فاستحييت من نفسي، لأننا نحن العرب قد سئمنا من التغني بماضينا حتى نسينا أنفسنا في كثبان الحاضر في وقت أدرك غيرنا الطرق المعبدة فسلكوها إلى المستقبل قبلنا بقرون.



استيقظت مبكراً فأدّيت صلاتي المفروضة ثم جعلت أجمع مستلزمات الرحلة متمتماً بذكري، الذي قاطعه السائق (آدم) بطرق الباب.

فتحت الباب فوجدته خلفه يكشر بابتسامته الرائعة، فشكرته كثيراً على دقة الوقت الذي لم أجده في أحد منذ أن وطئت قدمي هذه البلاد. إنهم يعيشون خلال الوقت ولا يهتمون به رغم أنهم لا يعملون فيه.

اقترح علي أن لا أضيع الوقت، بل إنه بادر بحمل الحقيبة وهو يقول بلغتي الأصلية (يا اللّه) ثم قلب اللغة بقوله:

- هيا بنا .. الوقت يسرقنا والمكان بعيد من هنا.

ثم انصرف بها متوجهاً إلى الخارج.

اكتمل تحميل الأمتعة مما يسر اللّه لي تذكره.

ثم ركبنا على بركة اللّه.

كانت شاحنة (آدم) متوسطة الحجم من طراز (نيسان - داتسون) ذات القمرتين والصندوق المكشوف، قديمة بخلاف ما اشترطته، لكنها تبدو في حالة جيدة. والحق يقال بأنها تعتبر واحدة من أفضل سيارات المدينة الصغيرة.

لم نركب حتى لاحظنا ثلاثة من الشباب من الذين كنت أتحاشى أن أنظر إليهم من قبل وهم يقفون بجانب سيارة صغيرة قديمة مهلهلة وينظرون إلينا بابتسامات غريبة فسرتها أنا بأنها تحمل شيئاً من الخبث.

لاحظ السائق ما لاحظته، فأومأ لي برأسه، وفي هذه اللحظة والمعرفة القصيرة جدّاً لن تلوموني لو شككت فيه.

تحركت سيارتنا ومررنا بهؤلاء الشباب فأشار (آدم) لهم بالسلام والابتسامة فرفعوا أصواتهم برد التحية لكن الغبار الذي أثارته عجلات سيارتنا كساهم قبل أن ينزلوا أيديهم.

التفت إلى الخلف فوجدتهم يركبون سيارتهم بسرعة، سألت (آدم) فوراً:

- هل تعرف هؤلاء الشباب؟.

قال:

- لا .

فقلت:

- إنهم ينطلقون خلفنا ... ماذا تظنهم؟

هزّ رأسه وقال وهو يحرك المرآة وينظر إليها:

- إنهم شباب عاطل، يسهرون الليل وينامون النهار، ولكن لن يستطيعوا إيذاء أي غريب هنا.

وما هي إلا لحظة حتى حاذونا وجعلوا ويقولون:

- هاي .. America good ..... How are you ......? .....

ويشيرون بأكياس بلاستيكية صغيرة في أيديهم.

قال (آدم):

- يبدو أنهم تجار مخدرات ... لا تلفت إليهم ولا تتحدث معهم.

أدركنا سيارة قديمة للجيش الوطني تسير أمامنا ببطء فما أن تجاوزناها حتى توقف الشباب وعادوا أدراجهم.

شعرت براحة شديدة لفراقهم، لكن انعطاف (آدم) السريع وهبوطه من الطريق المعبد الخشن إلى التراب على غفلة مني وأنا أنظر إلى الخلف كاد يسبب لي ارتطاماً بالزجاج.

اتجهنا نحو الشرق، وكان الطريق ليناً فيه قليل من الخشونة، نسير على آثار سيارات لا أدري كيف يعرف طريقنا منها، فقد شققت تلك الطرق صفحة الصحراء حتى لا تكاد تعرف أيهما طريقك .

كانت الأرض مكسوة بشيء من النباتات بينما تتناثر الأشجار في كل مكان.

كنت متشوقاً للالتقاء بقبائل رفضوا طواعية أن يندمجوا في هذا العالم الصاخب والعالم يعتقد بأنهم راضون بما ورّثه لهم أجدادهم عبر آلاف السنين. واكتفوا بالعيش منغلقين في أحضان الطبيعة البكر لأنهم لا يريدون أن ينفكوا عنها ولا تنفك عنهم. وكأن ليس في دنياهم إلا هم. فهم يعيشون سعادتهم التي يقيسونها بمعاييرهم وقيمهم ومعتقداتهم التي يظنون بأنها هي الأصدق والأنقى والأكثر راحة وطمأنينة، وربما غير ذلك .

مع أن الحقيقة مختلفة كل الاختلاف عما يظنه الناس، فليس هناك شعب يريد أن يبقى خلف أسوار التاريخ وأسير قيود التخلف والفقر، ولكن هناك أفراد محليين متسلطين على رقاب تلك الشعوب المسحوقة يستفيدون من بقاء ما كان على ماكان كأمثالهم في معظم الشعوب.

أنا أهتم بكل قديم حتى ما أجده من تراث وأخبار شباب أبي أظنه من الزمان الغابر وأحافظ عليه وكأنه من بقايا أبينا إبراهيم عليه السلام.

كنت أتحدث معه كثيراً ولم أتنبه كثيراً لثرثرتي لأنه عندما يكثر أحدهم من الثرثرة أعلم إما أن يكون سعيداً أو خائفاً، ولست أدري أي

واحد كنت، لكن حسن إنصاته وهزّ رأسه جعلني أعتقد أنه يستحسن ما أقوله. لكنني كنت كلما أردت أن أسمع حديثه غمزته بسؤال عن ما يهمه، فينطلق بالحديث .

كنت معه في قمة المتعة وأنا أتابع بمنظاري بعض وحوش الصيد التي تتراقص من بعيد وبعض الطيور الغريبة والأشجار العجيبة.

استعددت كثيراً لهذه الرحلة التي طالما تمنيت أن أقوم بها منذ زمن طويل، من كاميرا للتصوير ومناظير ليلية ومسجلات صوت وغير ذلك مما سأحتاجه.

لكنني للأسف نسيت تلفوني النقال فبالرغم من أنه لايمكن الاستفادة منه في تلك الديار النائية، لكنني كنت أعتمد عليه كثيراً في تحديد المواقع (GBS). كما أنني بخلت بشراء جوال الثريا الذي يمكن الاتصال منه من أي مكان في العالم.

كان (آدم) لا يفتأ من وقت لآخر يحذرني من التوغل كثيراً في القبائل الشديدة البدائية، لكنه بالرغم من تحذيره كان متشوقاً بشكل كبير للمغامرة التي شجعته عليها، وكان إلمامه بأكثر لغات القبائل التي تعيش في هذه الأنحاء محفزاً لنا على التوغل أكثر نحو ديارهم. بل إنه كان يقول لي بأن لغاتهم بدائية وغير متطورة ويمكن تعلمها بسهولة.

لم تصل الساعة التاسعة حتى استقبلتنا بعض الهضاب، واحتوتنا بعض الشعاب الرملية فقطعنا الجداول الجميلة، فأخرتنا عن مواصلة السير إذ وقفنا على جانب نهر صغير تحت شجرة ضخمة شديدة الخضرة وارفة الظلال، فتناولنا وجبة الإفطار مع كوبين من الشاي، وبعد تمدد على الرمال والاستمتاع بمساج نصف عنيف قام به (آدم) على ظهري المتعب، لكنني فشلت في إقناعه بأنني فني مساج جيد وكأنه آثر السلامة على ظهره. ثم أسندت ظهري إلى عجلة السيارة فأخذ الكرى بمعاقد جفنيّ في أحسن غفوة، لكن صبر (آدم) نفد بعد ساعة من الزمن أيقظني كالمرعوب من سرقة الوقت وزحف الأصيل.

استأنفنا المسير وكنت قد شعرت بهدوء وراحة أكثر بعد الاسترخاءة تحت الشجرة العملاقة مما سيعينني على السفر ساعات طويلة بعدها.



في الساعة الرابعة عصراً وصلنا مكاناً منبسطاً تعلو صفحة أرضه أعشاب ذات رواء وبهجة بينما تتناثر الأشجار الضخمة ومتوسطة الطول في كل مكان.

توقف (آدم) فجأة ونظر إليّ بعينين ضيّق فيهما كثيراً وفرّ ثغره عن ابتسامة غريبة وقال بهدوء:

- ما رأيك ... أتريد أن نخيّم هنا؟

التفت يمنة ويسرة .. وتساءلت لم اختار هذا المكان بالضبط فقال:

- هذا هو أفضل مكان يمكن أن نبيت فيه هذه الليلة، وغداً صباحاً نستطيع أن نقبل على القبيلة، لأنه ليس من الممكن أن نستضيف أحداً في هذا الوقت لأننا سنكون ضحايا للإهمال وربما لأشياء أخرى .

ثم فتح الباب ونزل من السيارة وتركني مع وساوسي.

فتحت الباب ولحقت به، وقلت ونبرة صوتي تفضح الخوف الذي دب فجأة في فؤادي:

- ماذا تقصد؟ هل هناك ما يخيفنا منهم؟.

استمر في تجاهلي وتوجه نحو شجرة ليست بالبعيدة ليقضي حاجته وتركني أجيل ناظري في الفضاء الفسيح الذي امتد إلى كل جهة وأنا أحاول أن ألتقط ما يدعو للخوف لا للطمأنينة، فرأيت نحو الجنوب على بعد عشرة أميال أو أكثر جبلاً غريب الشكل، ممتداً من الجنوب الغربي إلى ما لا نهاية له، مخروطي الشكل يتسع في أسفله ويضيق في أعلاه الشاهق. وقد كساه الله حلة عظيمة من الأشجار التي ظهر لنا سوادها آخر النهار، وقد رأيت سحابة سوداء تمر به لتعكس لنا صورة أبدعها الخالق، لم أهملها فسجلتها بكاميراتي.

أنزلنا خيمتينا الصغيرتين من السيارة فبنيناهما على رحرح من الأرض .

واستعددنا لبيات ليلة في موحشة لا يحرسنا فيها سوى الرحمن الرحيم، وليس معنا من السلاح إلا بندقية (آدم) ومسدس صغير لم يفارق إبطي كنت قد اشتريته من تاجر سلاح جاءني في الفندق.

كنت أراقب الشمس في غروبها وهي تهوي نحو الأفق البعيد وقد توشحت كساءً أحمر لم ألحظه إلا ذلك المساء .. تخيلت أن لها عينين خادرتين تودعانني بهدوء، وتبدّت لي صفوف الأشجار دونها كأهداب متبعثرة على أشفار عيون شيخ سكير تعيس.

لم أكن أتوقع ذلك الانقباض الذي شعرت به في وداع الشمس إذ كنت أتوقع هدوءاً رخيماً في هذا المكان الذي لا تزعجه آلات المصانع أوأبواق السيارات حتى بدأت الجنادب تصر والخنافس تصفر بل ومن بعيد سمعت الضفادع تنق. في إيقاع موسيقي مضطرب يدعو للسخرية.

بعد أداء الصلاة وإيقاد النار وبعد أن سحب الليل حنادسه السوداء علينا شعرت والظلام الذي اكتنفنا من كل جانب بأنه لا يوجد على هذه الكرة غيرنا، وأن الأرض ضيقة لا تتسع لغير خطواتنا القريبة. بل إن جذوع الأشجار كانت تبدو لي في فسحة النور المخنوق أشباحاً تترقب غفلة منا لتعبث بخيمتينا الرقيقتين.

لم يكفّ (آدم) من الكلام والضحكات التي بدت لي أنها مصنوعة في صدر مرعوب، حتى شككت في شجاعته التي كان يفتخر بها عليّ بصورة غير مباشرة. بل إن التفاتاته المفاجئة وخاصة نحو الغابة البعيدة جعلتني أنظر بنفس السرعة إلى كل هدف ينظر إليه، ولا أكذبكم فقد اعتراني خوف حقيقي آنذاك. فقلت له مازحاً:

- (آدم) ... ما لي أراك تتصرف وكأنك خائف؟! أين الشجاعة التي كنت تفاخر بها في الصباح؟

ضحك وقال:

- خائف ! أنا؟.. أخاف من ماذا؟!.

قلت:

- لا أدري ولكنني أرى أنك تكرر النظر نحو تلك الجهة، واعذرني إذا قلت بأن نظراتك تدل على أنك خائف فعلاً.

قال بكل جدية وهو يشير بيده نحو الجبل الذي شدني منظره قبل هبوط الليل:

- أقول لك بصراحة ... هناك قبيلة بدائية جدّاً، ومنغلقة على نفسها إلى حد كبير، وتعتبر أكثر القبائل البدائية انغلاقاً رغم ما يقال عن سلطانها وكاهنها. بل يقولون: إنهم يكرهون الغرباء بشكل كبير.

قلت:

- وهل هذا يعني أنهم عدائيون، ومن الممكن أن يهجموا علينا في الليل؟.

قال:

- لم أسمع بأنهم آذوا أحداً من قبل، ولم أقابل أحداً منهم قط.. تمنيت لو أننا تقدمنا قليلاً.

- ألا يمكننا أن نرحل الآن ونتقدم على الأقل ثلاثين أو أربعين ميلاً.

- لا فقد نواجه متاعب أشد مما هربنا منه.

فقلت مطمئناً له:

- توكل على الله، ولن يصيبنا إلا ما كتبه الله لنا، فقط خذ البندقية معك وسيكون المسدس بجواري.

أعترف لكم بأن هناك شعوراً سرى في كياني لا أعرف إلا أنه الخوف بعينه.

تناولنا شيئاً من الطعام المعلب، وشربنا قدحين من الشاي فأنا مغرم بالشاي إلى حد بعيد، ثم زدنا في إضرام النار لعل الذئاب

والضباع المتطفلة تهرب من حول حمانا، وعلى الرغم من خوفنا من الحيات والأفاعي إلا أن ثقتنا بخيمتينا البلاستيكيتين المحكمة أبعدت هذا الشبح عنا.

طال سهرنا وكان لا بد أن ننام، لكن عواء الذئاب وصفير الجنادب كبس على أنفاسي المتلاحقة، لم أكن يوماً أتوقع بأنني أخاف من هجعة الليل وظلام الصحراء هكذا.

لقد تمنيت لو أن القمر الحبيب الذي غادرنا هلاله مبكراً يبقى مصباحنا طوال الليل ليبعث في قلوبنا شيئاً من الأمن والسكينة لكن الله قدر للهلال أن لا يطيل حضوره أول الليل في بداية كل شهر قمري.

بالفعل تغلب النوم على جفني وسرى الهدوء إلى قلبي فأطلق سراح النوم ليأخذني إلى أحلام من كل فج عميق.

ظننت أنني استيقظت على غلبة أشعة الشمس الجميلة على جانب خيمتي شبه الشفافة.

سبحان الله ما أعظم الفرق بين شعاع الشمس في الصباح الباكر وبين وجهها وهي تغادرنا البارحة.

إن في القلب شمساً تشرق وتغيب تنير وتظلم تُفرح وتُحزن.

إن إحدى حقائق الشمس كونها التمثيل الداخلي لكل نفس وما تحمله من صور عن الكون والبيئة والحياة.

لكنني أدركت بأنني استقظت على صوت (آدم) وهو يناديني بعصبية خارج خيمته.

نهضت من فراشي وانطلقت نحوه، كنت أظنه يدعوني لأشاهد شيئاً مثيراً في الخارج، لكنني فوجئت بأنه يقف وهراوته في يده وأمامه أحد عشر رجلاً بدائياً، في يد كل واحد منهم رمحٌ طويل قد ركز أسفله في التراب وانتصب بجانبه متحفزاً للهجوم.

سود البشرة إلى حد كبير، صدورهم مكشوفة، على رؤوسهم عصابات من الجلد العفن، وتتدلى من أعناقهم قلائد علق فيها تعاويذ من الأحجار والعظام والأسنان، وقد ربطوا على أعضادهم أربطة غريبة، ستروا عوراتهم بأردية مصنوعة من الجلد وصلت إلى تحت الركب، كلهم شباب مفتلة عضلاتهم وكأنها قدّت من الصخر.

قلت لآدم فزعاً:

- ما الأمر؟.

فقال وهو متكئ على عصاه باستعداد:

- هؤلاء من القبيلة التي حدثتك عنها البارحة .

- فماذا يريدون؟.

- يريدون أن نرافقهم لعلاج سلطانهم المريض.

- فما رأيك أنت؟.

فقال وصوته ممتلئ بلهجة التحدي وشدة التأثر:

- ولا ندري هل هم صادقون أم كاذبون؟ إن طلبهم مشحون بلهجة الأمر والتهديد.

جعلت أنظر إليهم وأكلمه بصوت خفيض:

- هدأ واحذر وسنفاوضهم ونرى.

ثم وجهت كلامي لهم وقلت:

- ماذا تريدون بالضبط؟.

فترجم (آدم) بتبرم.

فقال أحدهم كلاماً طويلاً .

قال (آدم) ونظره ما زال مصوباً إليهم:

- يقول إنهم يريدون منا أن نعالج سلطانهم وقد أفهمتهم بأننا لسنا طبيبين لكنهم كذبوني.

في تلك اللحظة راقت لي الفكرة، فكرة أن أدخل هذه القبيلة كطبيب يعالج سلطانها، وبالطبع سنجد منهم كل احترام وتقدير بالإضافة إلى وصولنا إلى هدفنا الذي جئنا من أجله ثم نعود في نفس اليوم.

قلت له:

- خذ لنا منهم الأمان، أمان سلطانهم. وسنقوم بالمهمة.

ابتسم (آدم) وقال:

- ومن قال لك بأنهم يعرفون إعطاء الأمان، أنسيت أنهم بدائيون؟.

- حاول، وأنا واثق أن كل قبيلة مهما كانت بدائية تعرفه.

طال حديثه مع أميرهم، فأدركت بأن الصفقة تمت ونقاشهم بات في التفاصيل.

جمعنا أمتعتنا التي كانوا ينظرون إلى كل قطعة منها بكل اهتمام واستغراب.

ثم ركبنا السيارة فركب رئيسهم في المقعد الخلفي بينما صعد الباقون صندوق الشاحنة مع الخيام وبقية الأمتعة، فلما رأيتهم يتلمسونها ويتفحصونها خشيت عليها فقلت لآدم :

- قل لهذا الرجل يأمر أصحابه بأن لا يعبثوا بأمتعتنا.

فترجم له ذلك، فهمهم الرجل فتوقف (آدم) . ثم نزل ذلك الرئيس وجعل ينظر إلى محتويات السيارة واقترب منها وفحص بعضها ثم قال لهم كلاماً فيه نبرة النهي الصارم عرفت ذلك من شدة تأكيده على كلماته وحمرة عينيه المتورمتين.

كانت رائحة الرجل المقززة تفوح من خلفي حتى خيل إليّ أن قمرة السيارة ستنفجر كبطن جيفة منتنة، لم أتوقف عن التمتمة بكلمات تفرّج عن صدري، وتصارع الغثيان الذي يكاد يكتم أنفاسي. كان (آدم) يوسع في ابتسامته الساخرة ويسرقني بنظرات تزيد من غيظي، فلما شزرته، قال وقد بدا عليه الضيق أيضاً:

- ولم هذا التضجر؟ رحلتك كلها من أجل أن تشم مثل هذه الرائحة وتعرف كيف يكسبون هذه الرائحة، ولكي يفوز جسدك بقدر وافر منها أيضاً. تحمل أيها العالم فأنت مجاهد في سبيل العلم.

كنت بين الفينة والأخرى أتلفت إلى الصندوق لأرى من خلال الزجاج الخلفي لقمرة السيارة أولئك الرجال الذين ينظرون إليّ بعيون ما زالت تعابيرها الإنسانية تحمل من تعابير رجال العصر الحجري نصيباً وافراً، ومن بينها رأيت نظرات تعبر عن نصر مؤزر، وأخرى ترسم القسوة بكل معانيها، لكن عيونا أخرى هزيلة خاشعة تمنح قلبي

الرقيق شيئاً من الأمان الذي قطعوه لنا، وليت شعري هل في أخلاقهم خفر للذمام.

انطلقت السيارة لكن (آدم) كان رفيقاً بسيارته هذه المرة، بخلاف قيادته صباح أمس، وقطعاً لم يكن ذلك إلا خوفاً من أن يتأذى الرجال الذي يركبون في الصندوق فيوسعونه ضرباً أو وخزاً بالرماح.

وفيما نحن نعاني مما نحن فيه إذ صدح الرجال بأناشيد نشاز تقذف بالرعب في القلوب بدلاً من أن تسري الطرب إلى النفوس، أزعم بأنني ما زلت أذكر بعضها:

- هنقا هنقو هنقا .... هبّا هبو هبّا.

لا تسخروا مني ... أعتقد أنها هكذا، ولا تكذبوني إذا لم يكن في الدنيا كلها لغة مثل هذه.

لم أكن لأتبين حالي وحال صاحبي، هل نحن أسيران أم ضيفان؟

وبون شاسع بين هذين في مصطلح المتحضرين لكن ربما يختلطان في عرف هؤلاء الناس.

وشعرت بدوار الشاي في رأسي فتذكرت بأننا لم نذق شيئاً منه هذا الصباح، بل إننا لم نتناول وجبة الإفطار التي أعتبرها أهم الوجبات في اليوم والليلة، بل إن عشاءنا البائس ليلة البارحة كان خفيفاً جدّاً.

هناك طعام سريع بين الأمتعة، وقد هممت أن أوقف (آدم) لأتناول منه ما يقيم صلبي، لكنني أدركت أنني لو أخذت منه شيئاً يسيراً فسوف يقضي هؤلاء الرجال على البقية، وإذا فعلوا ذلك فهذا يعني أننا لن نجد ما نأكله منه حتى نعود إلى ديارنا والله أعلم متى وكيف نعود؟.

تصبّرت وأظن (آدم) تصبّر مثلي حتى ذهلت عن الجوع وأنسيته بالظمأ الذي أعانيه.

ارتفعت شمس الضحى وبدأت رياح الشمال تهب بقوة، حتى أثارت الغبار وأزعجت ركاب الصندوق مما جعلهم يخرسون ويتشبثون أكثر.

ومن بعيد بدأت تظهر لنا من بين الأشجار المتفرقة قباب متباعدة قد تدلت أهدابها على جدرانها. إنها بيوتهم التعيسة.

وما أن اقتربنا أكثر حتى صادفتنا قطعان البقر والماعز، والتي كانت تجفل بشدة من السيارة، والرعاة يحدقون بنا وقد وضعوا العصي على عواتقهم وعلقوا أذرعهم عليها، وجعلوا يتابعوننا بأبصارهم المذهولة وكأن مركبتنا هبطت من كوكب آخر.

وصلنا القرية وبدت لي بيوتها دمامل قبيحة على صفحة وجه حسن، فالأرض الخضراء والأشجار النضرة وخلفية الجبل المهيب الساحر تشوهت بوجود هذه المباني العشوائية القذرة وما يحيط بها من مخلفات حيوانية، مع ركام الزبل الذي يتواجد في كل ناصية من القرية.

كانت روائح الوحل والزبل تزكم الأنوف، لكن أنفي سرعان ما قارنها برائحة ثفر الرجل بجانبي فحسبتها أقل سوءاً.

أما بيوتهم فهي عبارة عن قباب دائرية مصنوعة من القش وجدرانها مشيدة بأغصان الأشجار عرفت لاحقاً أنها مطلية من الداخل والخارج بالطين وروث البقر.

كل بيت عائلة يتكون من قبة أو قبتين وقليل منها ثلاث متقاربة، وكل قبة تعتبر حجرة واحدة لا تزيد مساحتها على تسعة أمتار مربعة، تتخذ للجلوس والنوم والطعام، ليس فيها مكان مخصص للطبخ ولا لقضاء الحاجة أو الاستحمام إن كانوا يعرفون الاستحمام.

بقرب من كل بيت تقريباً سياج من الأغصان مشيد لأبقارهم وماعزهم .

ليس في هذه البيوت واحد يتميز عن الآخر، إلا بالمواقع التي بنيت عليها فبعضها مبني على أكمة صغيرة، وبعضها مبني على مستوى من الأرض، وبعضها تظلله الأشجار الكثيفة أو تظلل سياج البهائم وبعضه ليس حوله إلا شجرات قليلة.

بعضها حوله بئر ضيقة مطوية بالحجر وبعضها ليس عنده بئر.

رأيت أهل القرية يقفون على جانب الطريق أو بالقرب من بيوتهم وهم يراقبوننا بكل اهتمام.

يلبس الرجال نفس ثياب الرجال الذين معنا أما النساء فقد غطين أجسادهن بمحارم بنية خشنة شق لرؤوسهن فيها شقوقٌ وانسدلت أركانها عن اليمين والشمال والأمـام والخلف وتحتها أزر غطت أجزاءهن السفلى إلى الكعبين، أما رؤوسهن فقد غطينها بخمر صفر تثبتها عصابات جلدية لا تخلو بعضها من تعاويذ منوعة.

منهم من اقترب إلى طريق السيارة، ومنهم من وقف مكانه واضعاً كفه فوق حاجبيه ليظلل حدقتيه من الشمس..

هناك نساء قعود يرضعن أولادهن عند أبواب بيوتهن، وفي الجهة الأخرى نساء يجذبن الدلاء من الآبار، وأخريات يحملن الحطب أو الحشائش، لم تكن القرية قليلة السكان كما كنت أتوقع، بل يسكنها عدد كبير من الناس.

لم أر فيهم السمين، لكن هناك أجساداً راوية تدل على وفرة الطعام بينما هناك أجساد خسيفة لم يبق تحت جلودها لحم يقيها من عظامهم النحيلة.

نظرت في المرآة الجانبية فلقيت العشرات من الرجال والأطفال يركضون خلف سيارتنا.

وما أن انعطف بنا الطريق الذي يدلنا عليه رئيس المجموعة حتى ظهر أمامنا تل مرتفع في قمته سورٌ طويلٌ عال بني من الطين المزين أعلاه ووسطه بخطوط ونقوش حمراء وبيضاء وصفراء.

وإلى يمين هذا السور تنتصب عدة أسوار أصغر وأقل جودة منه إلا واحداً منها يكاد يضاهي هذا إلا في مساحته فإنه أصغر منه.

وصلنا غير بعيد من سلم حجري يرقى إلى القصر، فأمر رئيس المجموعة (آدم) بأن يقف، وما أن أطفأ (آدم) محرك السيارة ونزل الرجال من الصندوق حتى انقض الأطفال والسفهاء على السيارة يتلمسونها بأيديهم، همّوا بالصعود إلى أعلاها فخفق قلبي خوفاً على متاعنا فأشرت إلى القائد ليوقفهم فصرخ فيهم بصوت كالرعد فتقهقروا وعلى وجوههم صورة من الرعب لم أرها في جنسهم من قبل.

أخذت حقيبتي التي فيها كل ما لدي من أجهزة وأدوية بسيطة وأدوات إسعافات أولية، لكن رجلاً ائتمر بأمر القائد فحملها دوني وكان هذا التصرف حتى الآن هو أول ما قابلته من معاني الضيافة.

صعدنا السلم الحجري الذي لا يزيد عرضه على المترين وقد حفر لدرجاته في تراب التل بشكل غير متناسق. لكنه في النهاية أوصلنا إلى باب القصر السلطاني.

كان الباب ضخماً مصنوعاً من الخشب ومزيناً بحلقات ونجوم وأهلة معدنية صفراء كنت أظنها من معدن الصِّفْر اللمّاع لكني علمت فيما بعد أنها مصنوعة من الذهب الخالص فقد كانت بلادهم غنية بذلك المعدن النفيس قبل أن ينهبه الرجل الأبيض.

يتوسط هذا الباب جدار فناء طويل يصل ارتفاعه أكثر من أربعة أمتار مبني من اللبن ومدعم ببعض العيدان الطويلة، وملاط بالطين ومزين ببعض الرسوم المثلثة والدائرية بصبغات طينية بيضاء وصفراء وحمراء وخاصة في وسطه وقمته.

ولما اقتربنا من الباب قام أحد الحارسين الشديدين بفتح الباب لنا فأحدث صريراً خشناً قوياً أرعدت له فرائصي ولعل ما رأيته هو السبب، وفجأة إذا بكل من حولنا من الرجال يحنون رؤوسهم باتجاه القصر، وغمز لي (آدم) بأن أنظر إلى وسط القرية فنظرت إلى هناك رأيت الناس الواقفين قرب السيارة يتجهون نحو الباب وينحنون هم أيضاً.

قال لي (آدم) بسرعة:

- ألا ننحني معهم مجاملة لهم على الأقل؟.

هززت رأسي ممتنعاً وساخراً من اقتراحه، فنحن لم نأت لنقدم الولاء لذلك السلطان البدائي، ولم أتعود أن أخضع رأسي إلا لخالقي.

رفع الرجال رؤوسهم وسمحوا لنا بالدخول، ثم تأخر زعيمهم وسار خلفنا بينما تقاطر البقية خلفه. لم أكن أتوقع أن أرى في هذه الديار النائية فناء واسعاً بهذا القدر، ولم أتوقع أن أرى بين تلك البيوت البائسة قصراً أنيقاً بهذه الصورة.

كان الممر واسعاً إلى حد ما وعلى بعد ثلاثين متراً من باب القصر احدودب جسر من الخشب رأيته يمتد فوق أخدود يصل عمقه أكثر من أربعة أمتار تقريباً وعرضه لا يزيد على الثلاثة الأمتار مرصوف أسفله بالحجارة الملساء.

التفت نحو اليمين فرأيت عجباً، قطيعاً من الأسود الضارية رابضة في ظل شجرة أصلها في الفناء وظلها في الأخدود.

ثم التفت شمالاً فرأيت قطيعاً آخر من النمور المرقطة التي تنظر إلينا بعيون شرسة ... يا إلهي أين دخلنا؟ هل نحن في حديقة حيوان أم في قصر حاكم؟. لكنني عرفت بأن هذه السباع للحراسة وحتى لا يستطيع من تسول له نفسه العبور إلا من خلال هذه التهلكة.

نظرت تحتي فوجدت القنطرة ممتدة على باب حديدي يفصل بين الفريقين بإحكام، وعلمت أن هذا الجسر يمكن سحبه إلى الداخل على عجلات حديدية ويبقى الباب المسنن أسفله قائماً مكانه لكن يصعب السير عليه.

وربمـا لا أعـود إلى الحديث عن هـذا الأخـدود فقد عرفت لاحقاً بأنه قد حفر هذا الأخدود وشيد بإحكام وتصريف مائي جيد، ويمكن السيطرة على السباع في أجزاء منه.

أما طعام هذه السباع فإنها تتناول لحوم أغنام وعجول القبيلة الطازج الذي يقدم لها كهدايا أو ضرائب، وربما تتناول بعض لحوم البشر الذين يحكم عليهم بالقتل وإن كان ذلك نادراً كما ذكر لي.

سرنا قليلاً باتجاه القصر فرأيت نحو اليسار عريشاً مرتفعاً عن الأرض لكنه مصمم تصميماً هندسيّاً جميلاً يليق بقصر سلطان على الأقل يعيش في مثل هذه البيئة، وكان حول هذا العريش الخشبي تماثيل حجرية أقل ما يقال عنها أنها قبيحة، إلا انها تمثل حسب رأيي شيئاً من الترف، وفي الجانب الآخر يوجد مساطب حجرية متراصة حفرت عليها مثلثات ودوائـر، يتوسطها من الجهة القصوى أربعة كراسي حجرية عالية يتميز أحدها بكبر حجمه وارتفاعه، يقابلها من الجهة الدنيا جذع شجرة مغروس في الأرض لا يزيد ارتفاعه على نصف متر فيه حلقة حديدية سوداء صدئة.

رفعت بصري مرة أخرى إلى القصر أمامي فرأيته، عبارة عن (فيللا) مبنية على مساحة لا تزيد على ألف متر مربع، مشيدة على الطراز الشرقي الممزوج بالطراز المحلي ببراعة، جدرانه من الحجر

الداكن، ونوافذه مصنوعة من الخشب والزجاج. له شرفة واحدة فوق الباب تطل على الفناء، وينتصب تحت هذه الشرفة سقف خشبي مزين بزخارف خشبية تحمله أربعة أعمدة من الخشب الأسطواني الأحمر العريض المزخرف والموشى بمثلثات وأهلة ذهبية. وبينما كنت أنظر إلى تلك لأعمدة والباب الذي تلمع زخارفه والنوافذ القليلة التي تشرف علينا من واجهة القصر إذ بشاب وفتاة يخرجان من باب القصر الذي أمامنا ثم وقف كل واحد منهما عند عمود عن اليمين وعن الشمال، وقد استقبلانا بوجهيهما، كانت ابتسامتهما غاية في الإشراق والعذوبة، وكأنهما تعمدا أن يتفضلا علينا فيزيحا ما كبس على نفسينا من عبوس منذ الصباح الباكر.

كان الشاب يرتدي إزاراً مزركشاً بألوان فاتحة وقد وشّي بأسلاك الذهب الدقيقة جدّاً، يشد وسطه حزام جلدي أسود رقيق وأنيق، وفوقه رداء رمادي طرزت ياقته بشيء من اسلاك الذهب أيضاً، بينما كانت تميمة حجرية زرقاء جميلة تتدلى على صدره العريض.

أهيف القد سبط القوام شديد البنية طويل إلى حد معقول. يميل إلى السمرة قليلاً وليس إلى السواد، فطاسة أنفه ليست بالعريضة يختلف عن قومه في هذا كثيراً، وكما أعلم فإن السلاطين غالباً ما يختارون لنطفهم حرثاً أكثر جمالاً وصلاحاً، ولهم خلقة في الجمال يحسدها عليهم بقية الشعب.

أما الفتاة فكانت أكثر بياضاً من الشاب، تكتسب قدراً وافراً من الجمال الأفريقي، ولو كنت أتوج أحداً لتوجتها ملكة جمال قارتها بجدارة. حسنة شآبيب الوجه، لدنة المعاطف رشيقة القد، هيفاء القوام. عيناها حوراوان يعلوهما حاجبان دقيقان، أنفها دقيق رقيق على غير مثال في قومها، مبسمها غير متسع لها نونة أنثوية رائعة غطت رأسها المفلفل بخمار داكن موشى بالذهب، على جانبه تلتصق زمردة زرقاء لامعة، أما رداؤها وإزارها فلا يختلفان كثيراً عما يلبسه الشاب.

تمتم الرجل الذي يصحبنا بكلام خفيض، فترجم (آدم) كلامه على الفور قائلاً:

- إن الشابين هما ولدا السلطان، وإن هذا الولد هو ولي عهده.

لم ينته (آدم) من ترجمته حتى بادرانا بالترحيب باللغة الإنجليزية، فانفرجت أساريري لسماع هذا الترحيب بلغة أفهمها فأوسعت لهما ابتسامتي بينما انشغل من حولي بالانحناء لهما بما فيهم (آدم) نفسه.

وبينما كان (آدم) يخفض رأسه كان يتمتم غاضباً لعدم ركوعي معه وقد ارتسمت على وجهه آيات الخوف والرهبة.

كنت متضايقاً من إسراف (آدم) في المجاملة التي من خلالها تهون عليه كرامته في سبيل تجنب المتاعب كما يقول.

أدرك بأن بني آدم أشباه صاحبي (آدم) كثر في كل المجتمعات، وأومن بأن هؤلاء هم الذين يجلبون المتاعب للشعوب حولهم، فكم من متكبر جبار يرى خضوع تلك الأنوف الراغمة ولاء وعبودية كحق مكتسب فرضه الله له على عباده، لأنه صاحب جلالة أو فخامة أو سمو .

وكلما زاد خضوع ذلك المتذلل المنافق زاد تكبر ذلك المتكبر مطالبة بالمزيد من هذا النوع بل يتطور به الوضع حتى يعتقد بأن حقه هذا واجب على بقية الناس، فلا يرى السعادة في أي مجتمع إلا إذا تناول جرعات من هذا النوع.

وكلا الطرفين يكذب على الآخر. وفي النهاية مع الأيام يزيد المنافق خضوعاً وذلة ويزيد المتجبر تكبراً وعجرفة.

توقف الرجال وارتقيت أنا و(آدم) الدرجات الرخامية الثلاث ثم مددت يدي باحترام لولي العهد لأصافحه فسارع إلى مدّ يده نحوي وهز يدي محيياً بعنف ... ثم استدرت فصافحت الأميرة فلاحظت ترددها في مدّ يدها وهي تنظر إلى أخيها ثم مدّت يدها وصافحتني بخجل. وهكذا فعل (آدم) بعدي.

وما أن انتهيت من مصافحة الفتاة ونظرت إلى الرجال فإذا بوجوههم قد عبست، فارتبكت وعلمت بأنني أخطأت بمصافحتي للأميرة، وقد علمت لاحقاً أن المشكلة كانت في مصافحة الأمير الذي لا

يحل لأحد أن يصافحه إلا السلطان أو الكاهن أو أمير مثله.

جعل الأمير يكرر كلمة الترحيب .. welcome .... welcome.

فقلت في نفسي لعله لا يحسن من الإنجليزية غيرها .. لكنه قطع تفكيري وقال ببساطة:

- أتمنى أن لا تكونا قد تعبتما في رحلتكما إلينا.

شكرته على حسن الاستقبال، ثم توقفت والتفتّ حيث يقف أحد الرجال حاملاً حقيبتي فوق رأسه ... وقلت:

- أرجو يا سيدي أن تأمر بإدخال حقيبتي.

فأشار الأمير إلى خادمة سوداء ضخمة كانت تقف على الباب، فانقضت على الرجل وكأنها تنتزع الحقيبة منه بقسوة.

ولجنا ذلك الباب الخشبي اللامع لكثرة ما رصع بالذهب .. الذي كان يخفي الكثير من عيوب النقش. وقد أضفى عليه جمالاً براقاً وذوقاً عفويّاً.

في الداخل كان كل شيء مصنوعاً من خشب الأشجار وعاج الفيلة... كان البهو فسيحاً إلى حد ما، وينعم بضوء ملوّن غزير انصبّ عليه من فتحات عديدة .. أغلقت بأنواع من الزجاج المزخرف الذي ظننت أنه لا يصل إلى هذه البلاد النائية.

ليس هذا فحسب بل إن القناديل المعلقة توقد بالكيروسين، مع ندرة الكيروسين في البلد حيث يوقد أهل القرية مصابيحهم بالشحوم .

لقد شعرت بالذعر أول مرة حينما دست بقدمي على أنف ملك من ملوك غابات أفريقيا لأول مرة .. لا تكذبوني فأنا أقصد جلد أسد حقيقي، فالبهو والممرات مليئة بجلود سباع ضارية من نمور وأسود.

لكن سريعاً ما تبدل الفزع إلى زهو عجيب، فأنا أدوس على أنوف أسود ونمور شرسة كنت أخاف من مجرد رؤيتها في حديقة الحيوان. ولم لا فأنا أدوس عليها بسلطة سلطان.

انحنى بنا الممر إلى غرفة جانبية كل ما حول بابها يدل على الفخامة لكنها فخامة تتناسب مع القصر نفسه وربما أقل قليلاً، وقبل أن نصل إلى باب الغرفة تسلل إلى مسامعي أنين لم أعتقد بأنني سأسمع مثله في حياتي.

كنت أظن أن السلاطين لا يئنون مثل بقية الشعب، وكنت أظن أن أنينهم إذا (أنّوا) ليس كأنيننا نحن بقية البشر بل هو يحمل نوعاً من معاني الفخامة والهيبة والعظمة متناسياً أن الناس يحملون أجساداً متشابهة ... لكن الواقع أنني أسمع أنيناً متهالكاً.

أنا أعرف بأن ما جاء بي إلى بلاط السلطان هو مرض السلطان ... لكن الذي أتعجب منه هو أنين وتوجع ملك من ملوك أفريقيا العظماء بهذه الحالة.

فتح الأمير الباب فبرز لي على الفور شبح على سرير ذي قوائم خشبية بنية ضخمة، وقد سجي بلحاف مخطط غليظ لم يبد منه إلا رأسه الأشيب الأشعث، ووجهه متجه إلى السقف وكأنه يحتضر لولا أنينه المتواصل.

تقدمت قليلاً وقد تملكني شعور غريب، إنه شعور الرهبة والإجلال، الممزوج بالخوف الحقيقي .. خوف المجهول من انكشاف حقيقة شخصيتي المزورة .. يا لتهوري وجرأتي على الملوك ..

تقدمت قليلاً وأنا أغالب مشاعري التي تحاول أن تخذلني قبل أن أمارس مهنتي الجديدة .. الأطباء المزورون في العالم والذين ينعمون بسذاجة العامة وخيانة المسئولين كثر، لكنني أتحدى أن يكون أحدهم أجرأ مني، فضحاياهم من عامة الشعوب الضعيفة أما أنا فضحيتي سلطان من سلاطين هذا العالم.

أولئك الأطباء سوف يرحلون إلى بلادهم ليلحقوا بثرواتهم هناك فيتقلبوا في نعيمها أما أنا فإن أخشى ما أخشاه أن يتنعم زمرة من الأسود في فناء القصر بإهابي.

في تلك اللحظات أدركت أنني لا أعرف إلا عقاري (البنادول والأسبرين) وحبوب المغص والمضاد الحيوي الذي معي، لكنني في لحظات التفكير تلك نسيت كل شيء حتى ما الذي يعطاه مريض الحمى

وما الذي يجب أن يتناوله من يصاب بالصداع، بل ربما نسيت حتى أسماء تلك العقاقير التي أحملها.

وفجأة طرقت خيشومي رائحة بخور ثقيل مختلط برطوبة عفنة كادت تصيبني بالدوار والغثيان، تجاهلت تلك الرائحة وتقدمت نحو السلطان بينما توقف (آدم) على الباب ليسلم من تلك الرائحة وفي نفس الوقت ليظهر إجلالاً لصاحب الفخامة ثم إنه يعرف قدر نفسه فهو ليس طبيباً مثلي.

قربت من السلطان ثم وضعت كفي على جبهته وقد جعلت أومئ برأسي قبل أن تلامس راحتي جبهته، لكنني شعرت بالتهاب ذلك الجبين المتغضن بأشد حرارة تشعر بها على جلد بشري.

كان ساخناً جدّاً ويرتعش من شدة تلك الحمى بما لم أره من قبل.

لم أعد أطيق تحمل الرائحة العفنة حولي فأجلت بصري في الغرفة فرأيت ما أوحشني، رؤوس سباع ووحوش صيد شبه محنطة معلقة كزينة على جدران الغرفة هي مبعث الرائحة الكريهة ولعلها زادت من كآبة هذه الغرفة المعتمة التي لا يضيئها إلا مصابيح لعل وقودها من شحوم تلك الحيوانات مما أكسب الغرفة تلك الحالة المزرية.

لم تكن تلك الغرفة لتصلح أن تكون غرفة سلطان في قصره، ولو كان كأي سلطان لا يملك مثل ذلك القصر لبطل العجب. لكن الرجل

كان يرقد في مرضه في تلك الغرفة الجانبية والتي قد خصص لها باب يفتح في الفناء لكي يدخل معه الزوار من عامة رجال القبيلة لأنه محرم عليهم دخولهم من الباب الرئيس. كما أن لديهم صالة أخرى تقع بعد هذه الغرفة يجتمع فيها أعيان القبيلة مع السلطان أحياناً.

ما أن رفعت كفي من جبهة السلطان حتى زاد أنينه مع فحيح مخيف ثم عقد جبينه ليحد بصره فيّ لكن عينيه الذابلتين كانتا تظهران لي بوضوح الاستسلام والضعف المتناهي.

كانت الحمى تبالغ في إرعاش لحيه الأسفل وقد رفع يده من تحت اللحاف ليشير لي بشيء أو يناجيني بحركته متوسلاً إياي بأن أمنحه العافية، وكأنه لا يعلم بجهله من يمنحها وينزعها. .

ابتسمت له ابتسامة ملائكة الرحمة كما يلقبونهن، مودعاً في حركاتي ثقة جهابذة الطب وحسبك بفاقد الشيء كيف يعطيه.

سألت الابن وأنا مستاء لحالة والده:

- إنه يستعر من شدة الحرارة ... هل هو على هذه الحال مدة طويلة؟.

فأجاب بلغة إنجليزية مكسرة، وقد بدا عليه قدر من الأسى الحقيقي:

- نعم إنه منذ عدة أيام وهو يعاني من هذه الحمى.

فقلت متعجباً:

- ألم تقوموا بعلاجه ... ألم تستدعوا له طبيباً من قبل؟

فأومأ الأمير برأسه بالإيجاب وقال:

- بلى لقد بذل الكاهن جهده في معالجته لكنه لم يفلح .. ولم أقم بطلب العلاج منكما إلا بعد أن يئست من مساعدة الآلهة لكاهننا رغم رفضه القاطع لجلب طبيب إلى هنا، لأن من تقاليد القبيلة عدم السماح لأي غريب ولو لمعالجة السلطان نفسه، وهذا تقليد قديم عندنا. لأنه إذا لم يشف من الكاهن فلن يستطيع أحد أن يشفيه، لأن الأرواح لم ترد شفاءه بعد .

ربما لاحظ ملامح استغرابي في صفحة وجهي فأومأ برأسه واستأنف:

- هذا هو معتقدنا ونعتقد بأنه هو الصحيح.

فقلت له:

- قبل أن نكمل نقاشنا أرجو أن تأمر لي بماء بارد وخرقة نظيفة .

نظر إلى أخته الواقفة فخرجت على الفور، أما أنا فقد توجهت إلى

أقرب نافذة لأفتحها، وما أن أمسكت بمقبضها حتى سارع فقبض على يدي وقال فزعاً:

- على رسلك يا صديقي ... كيف تفتح النافذة وأبي مريض على هذه الحالة؟ ألا تعلم بأن فتحها سيزيد من وطأة الحمى؟.

نظرت إليه وما زالت يدي تعالج مقبض النافذة وقلت:

- هذا غير صحيح ... إذا أراد سموكم أن يشفى والدكم فاتبعوا إرشادات طبيبه.

فأطلق يدي وتراجع قليلاً، ثم التفت إلى أخته التي أقبلت مرة أخرى وليس معها شيء، لكنها لم تلبث حتى أقبلت الخادمة بقدح فيه ماء ومنشفة كبيرة فقلت لها بأننا نريد مناشف أصغر حجماً.

كنت قد أكملت فتح النوافذ الأربع وما أن عادت الخادمة ورأت النوافذ مفتوحة والهواء يقتحم عفونة الغرفة حتى ضربت صدرها المكتنز بكفها وشهقت شهقة قبيحة وشزرتني بنظرة أخافتني.

غطست المناشف التي أحضرتها في القدح ثم عصرتها ثم وضعتها على الجبين الملتهب فما أن لا مس أديمه حتى شهق شهقة قوية وتشنجت أطرافه، وفي لمحة رأيت الشابين وقد اتسعت أحداقهما خوفاً أو رحمة.

استمررت في تبريد جبينه الملتهب، وهو مرة ينزع المنشفة ومرة يدعها حتى بدأ جسده يرتعد من البرودة.

كان ريقي يزداد جفافاً حتى أصبح فمي كورقة جافة من الظمأ، وكنت أريد أن أشرب لكنني لم أكن لأشرب من مائهم، فقلت للأمير:

- أرجو أن تأمر أحداً يرافق (آدم) ليحضر لنا ماء طبيّاً من السيارة لأسقي حضرة السلطان بعض الأدوية.

خرج الأمير مع (آدم) ثم عاد الأمير وكانت سعادتي غامرة وأنا أرى ابتسامات الأميرة الجميلة تتسع مرة بعد مرة.

اقترب الأمير من أبيه فوضع كفه على جبينه فبسم له ابتسامة منهكة.

واصلت التبريد فأنا أريد أن أبقى مشغولاً حتى يعود (آدم) وحتى لا يبادراني بأي سؤال طبي.

عاد (آدم) بالفرج ومعه عدة قنانيّ من الماء وما أن وصل حتى مد لي واحدة فيها شيء من البرودة التي أقنع بها في هذه الظروف. فشربت من فمها، حتى ابتلت عروقي فحمدت الله ثم أكملت عملي، فأخذت قنينة أخرى ففتحتها وأخذت حبة من البنادول فناولتها السلطان.

ثم ناولته حبة أخرى من مضاد حيوي معي ليساعد على سرعة تماثله للشفاء على الأقل ما دمت في حضرتهم. كان يقاوم فتح فمه ويقبض عضلات وجهه متمنعاً لكنه خضع لتشجيع ولديه فشربهما مكرهاً.

نظر الأمير إليّ وتبسم ابتسامة ساخرة وهو يشير إلى القنينة وقال:

- هل هذا ماء طبي يا إبراهيم، أم ماء صحي؟.

فهمت من كلامه أنه يعرف هذا الماء جيداً وأنه لا داعي للادعاء الكاذب. فأومأت برأسي وأنا أقول وأتجه إلى السلطان:

- الماء الصحي هو أهم مادة طبية يمكن أن تدخل أجسادنا أيها الأمير.

ثم نظرت إلى المصابيح وقلت للأمير:

- أرجو إطفاء هذه المصابيح، فهي تستهلك الكثير من الأكسجين الذي يحتاجه السلطان كثيراً.

رأيت عزة النفس تطفو على صفحة وجهه فلعله سمع صيغة أمر لأول مرة من غير أبيه وإن كان قد سبق بكلمة رجاء. هزّ رأسه ثم أشار إلى الخادمة التي توجهت فوراً إلى المصابيح فأطفأتها جميعاً إلا أكبرها أبقته حيّاً.

اتجهت إلى السلطان فرفعت غطاءه الثقيل من فوق جسمه المتهالك، وليتني ما فعلت فقد انبعثت رائحة كريهة كادت تصيبني بالغثيان وتسبب لي حرجاً كبيراً لكن الله سلم.

كادت عورة الشيخ تظهر رغم محاولته سترها إلا أن يديه الثقيلتين تهاوتا قبل أن تسترد الإزار المتعرق.

أخذ الشيخ يرتعد مكانه ويهذي ويتمتم بكلمات لا أعرفها لكني فهمت من ولده أنه يقول: أعيدوا علي لحافي .. فابتسمت للشيخ وقلت للأمير:

- أرجو أن تفهمه بأنني أقدر ما يعانيه من الشعور بالبرد لكن الغطاء هو الذي يزيد الحرارة، وكلما ازدادت الحرارة ازداد الشعور بالبرد..

أشار الأمير بيده لأن نجلس على الكراسي القريبة من السرير فاستأذنت الأميرة وخرجت، أما أنا والأمير و(آدم) فجلسنا على كراسي خشنة لا ندري لم وضعت في هذه الغرفة بالذات، وجعلنا ننظر إلى ذلك السلطان الضعيف.

فرّج الشيخ عن جفنيه بصعوبة ثم جعل يصوب بصره جاهداً فيَّ وفي (آدم) فأوسعت له في الابتسامة لكن المرض زاد في تجهم وجهه، ثم نظر في ابنه وكأنه يسأله عنا، فقال الأمير له كلاماً بلغتهم، ثم التفت إليّ وقال:

- قلت له: هذا طبيب أمريكي حاذق جاء ليعالجك .

هزّ الشيخ رأسه وعاد إلى إطباق جفنيه الصغيرين.

❊ ❊ ❊

٢١

صعد بنا الأمير إلى الدور الأول من خلال سلالم اخالها سلالم فندق فاخر في إحدى زوايا باريس، ثم في وسط الممر أدخلنا في غرفة غاية في الترتيب والجمال الطبيعي استطاع مهندس الديكور أن يجعل محتوياتها تحاكي المجتمع أو القارة بشكل عام لكن بمستوى ملكي فاخر.

كان البون بين داخل بوابة الفناء وخارجه شاسعاً ومخيفاً، لكن حكمة عقدت لساني لأنتظر وقتاً آخر أجد فيه متنفساً للحديث، فقد تعودنا في بلادنا الشرقية والغربية أن نثرثر بصراحة عن كل ما يمس الحاكم والمحكوم، لكن أمام المحكوم لا الحاكم وهذا أيضاً بون شاسع.

أيضا فإنه كان الوضع في غرفتي أنا و(آدم) مختلفاً تماماً عن الذي رأيته في الأسفل حتى في غرفة السلطان نفسه ..

لا أكاد أصدق نفسي أنني في مثل هذه الغرفة التي تحيط بها تلك القرية البدائية التي تحارب المدنية بكل معانيها.

خرج الأمير وتركنا نأخذ قسطاً من الراحة.

قلت ل(آدم) بصوت خفيض:

- ألا تعجب مثلي مما نحن فيه؟.

فهم (آدم) قصدي وتبسم ثم اقترب مني وقال:

- كنا في هذه البلاد نعتبر هؤلاء القوم أكثر همجية وانطواءً ونفوراً من الأغراب، بل كنا نعتبر حماهم خطراً على السياح .. وذلك لتمسكهم الشديد بثقافتهم البدائية. حتى أننا كنا نعتقد أنهم لا يلبسون الأقمشة التي تحاك في الخارج.

ثم أخذ يتلمس الفراش تحته ويهمس:

- المس .. هذا الفراش لا يوجد إلا عند الأثرياء جدّاً في المدينة.

ضحكت وقلت:

- لماذا تستغرب وجود هذا الفراش؟ .. إنك في قصر سلطان.

هزّ رأسه وضيق في عينيه والتفت نحو الباب وقال:

- غريب أمر سلاطين البدائيين هؤلاء ... يحرّمون على شعبهم الترف وهم يغوصون فيه إلى آذانهم.

ضحكت من هذا الذي يعتبره المسكين ترفاً... لكنه بالفعل صادق فيما يقول إذا ما قورنت حالة هؤلاء البؤساء خارج هذا القصر بالدور الثاني منه.

فهناك مصابيح لا تشتعل بالدهن كما رأيت بل بالكيروسين وهي مادة لا يعلم أحد بتهريبها إلى القصر فيما أظن.

وهناك صابون في الحمام ومنشفتان ناصعتا البياض بجانب المرآة الجميلة.

هذه هي الغرفة المخصصة للضيوف فكيف بالجناح السلطاني الذي خصص للسلطان الأعزب الذي لا يشاركه فيه أحد فقد ماتت أم الأميرين منذ زمن، أو بجناحي الأميرين.

كان تخصيص هذه الغرفة لنا وتغييرنا لملابسنا رسالة لنا بأن المقام سيكون أياماً عديدة وليس ساعات ولا يوماً أو يومين.

بدأ الجوع ينهش أحشاءنا، فلم نذق طعاماً منذ الصباح، والساعة تقترب من الثالثة عصراً ولم نتمكن من الذهاب إلى سيارتنا لجلب شيء من الطعام الذي نستطيع أن نأكله.

قلت لصاحبي وأنا أنظر إلى السيارة الجاثمة على مرمى من البصر:

- آه يا سيارتنا العزيزة ليت عندنا شيئاً من الطعام الذي فيك، ولو قطعا من الكعك أو قنينة من عصير المانجو البارد.

قام (آدم) متجهاً نحو الحمام وقال مازحاً:

- لا تقلق سيأتيك عصير الماشية الأحمر.

فزعت وشعرت بالغثيان من هذا التعبير الذي لم أسمع به من قبل وقلت:

- تبّاً لك ! ما هو عصير الماشية الذي تعنيه؟.

توقف ونظر إليّ وقد بدت علامات المكر على وجهه وهو يضحك ويقول:

- أوه .. لعلك لم تسمع به من قبل؟ إنه عصير لذيذ سيعجبك كثيراً.. إنه خليط من الدم الأحمر الزكي والحليب الطازج يا صديقي.

ثم أغلق عليه باب الحمام وهو يضحك وتركني أنازع كبدي التي كادت تقذف بما في جوفي. معذرة على هذا التعبير الآخر ولكني بالفعل كدت أفعل ذلك عندما رأيت مشروباً كهذا في أحد البرامج التلفزيونية من قبل.

صدفت نفسي عن الطعام وانقضضت على صندوق قناني الماء فأخذت واحدة وشربت منها حتى آخر نفس ثم انطرحت على الفراش وأخذت أرخي عضلاتي وأتنفس بعمق، لكن عضلاتي لم تهتد إلى طريق الاسترخاء على غير العادة كما كانت تفعل من قبل .

وفجأة طُرق الباب بهدوء ولم ينتظر الطارق إجابة فقد فتح الباب ودخل، فكان الأمير نفسه متبسماً، عظيمة كانت ابتسامته فقد أنستني جرأته على الدخول بدون إذن لكن كان علي أن أتذكر دائماً أن أمثاله لا ينتظرون إذناً من أحد حتى في خصوصياتهم.

قال الأمير بالإنجليزية المكسرة:

- أتمنى أن تكونا قد استرحتما قليلاً .. لقد حان وقت الغداء .. هل أنتما جاهزان؟.

قعدت وأجبته بسرعة:

- نعم يا سيدي لكن (آدم) ما زال ينعم بالحمام منذ دقائق.

ضحك ثم جلس على الأريكة وأخذ ينظر إلى القرية من خلال النافذة ويهز رأسه ثم نظر إليّ وقال:

- أدرك أن لديك أسئلة كثيرة وأنك متعجب من حال القبيلة والقصر وأهله أليس كذلك؟.

هـزرت رأسي دون أن أظهر الإجابة بنعم أو لا .. لكنه استأنف بقوله:

- حسناً ... سأتعجل لك بالخبر حتى يبطل عجبك وتستريح.

أنا وأختي أخذنا قسطاً من التعليم في المدينة، لا تقل: كيف غبتما ولم تعلم القبيلة بذلك؟ لأنني سأجيبك بأن لدينا في هذه القرية كاهناً عظيماً استطاع أن يبرر غيابنا تلك المدة بالذهاب إلى دار الكهان لتعلم أصولها.. إنه كاهن مخلص وطيب. لقد درسنا هناك حتى حصلنا على الشهادة الثانوية. وتعلمنا اللغة الإنجليزية التي نتحدث بها معك، ثم لم نتمكن بعد من إكمال دراستنا لرفض السلطان ذلك.

قلت:

- الآن بطل عجبي في تحضرك ومقدار معرفتك باللغة الإنجليزية.

ضحك وهو يمد يده نحوي، وقال:

- هذه واحدة وسيتكشف لك الكثير من أسرارنا التي سئمت من كونها أسراراً.. إنني عازم على أن أنقل شعبي إلى حضارة القرن الواحد والعشرين ولكن في الوقت المناسب.

خرج (آدم) من حمامه فسكت الأمير لكنه همس في أذني ...:

- لكن يجب أن يكون ذلك سرّاً بيني وبينك، لا أريد أن تطلع (آدم) عليه، اتفقنا؟.

هززت رأسي بالإيجاب ..

يقول: بأنه سيكشف لي أسراره وأنه سئم من الأسرار .. وهو يأمرني أن أكتم سره .. لكنني فسرت فعله ذلك بأن (آدم) من بني جلدته، أقصد من أبناء بلده، وأنا أعرف الكثير من المسئولين - كما هو الحال في بلاد متخلفة كثيرة - عندهم الأجنبي أقرب لهم من بني جلدتهم ويثقون به كثيراً، بل ويودعونه أسرارهم وأسرار بلادهم وهم واثقون من حفظه لها، بالرغم من أن التجارب أثبتت العكس.

وبينما نحن نسير نحو صالة الطعام القريبة كنت أنظر إلى الأمير باحترام بالغ..

إنه يعيش في نعيم لا يتمتع به الآخرون لكنه يتألم لما هم فيه من تخلف وفقر ومرض . كما بدا لي من كلامه وهو عازم على نقلهم إلى حضارة القرن الواحد والعشرين (على حد زعمه).

ورغم تناقض آراء الشاب التي قالها لي لاحقاً وما يخطط له إلا أنني أبحث عن سبب يجعلني أشيد به في نفسي فنحن عادة نذم السلاطين من بعيد فإذا اقتربنا من موائدهم وضحكت لنا أنيابهم اكتشفنا طيبتهم وصفاء قلوبهم.

ما أن جلست على مائدة الأمير العامرة، حتى صارت عيناي تجولان كالبرق على كل ما فيها، بينما أخذ (آدم) يرمقني بعينيه الماكرتين ويبتسم .. ولكن الحمد للّه لم أجد عصيره الذي ذكر ضمن المائدة .. لقد أفسد علي بداية التمتع بالنظر إلى أطايب الطعام التي مدت على الطاولة .. جدي صغير مشوي .. وأرز أبيض في صوان صغيرة ونوعان من الإدام وشيء من الحلوى ..

يا أللّه هل هذا كله هنا في هذه الأرض المعزولة من العالم؟!..

لم أكن أظن أبداً أنني سأجد مثل هذا منذ أن خرجت من الفندق الذي انطلقت منه بالأمس .. ولكن ألست في قصر السلطان؟!

وزعت المناديل وبينما نحن نضعها إذ أقبلت الأميرة تمشي بكل هدوء ونعومة حتى اقتربت منا.. فقام (آدم) وشزرني لكي أقوم احتراماً لها .. قمت فحييتها برأسي .. وأشارت أن اجلس .. وكان احترامها لي واحتقارها لآدم قد أثار حنقي.

جلست وأنا أنظر إلى رزانتها بإعجاب شديد.. لم تتكلم منذ أن جلست وكانت نظراتها مقصورة على المائدة لا ترفع ناظريها إلا إلى أخيها وقليلة تلك المرات التي تنظر فيها إلى أحد الضيفين إذا تكلم..

لم أفهمها .. هل هذا تكبر أم أدب جم؟.

لاحظ الأمير تمتعي بالطعام وربما كان الجوع يأخذ بناظري في كل صحن فيه بصورة لفتت انتباه الأمير فقال ممازحاً:

- الطباخون المهرة ليسوا حكراً عليكم معشر البيض، لدينا واحد من أمهر الطباخين في البلاد، ويتقاضى مرتباً ممتازاً.

ضحكت وقلت:

- يبدو أن طباخيكم أمهر من طباخينا بكثير يا صاحب السمو.

❋ ❋ ❋

انصرفنا إلى غرفتنا وقد ذهب الجوع والظمأ وابتلت العروق والحمد لله .. فنمنا فيها حتى المغرب.. اختلط طيّب النوم بثقيله وأحلامه بكوابيسه، لا أدري هل أراحني أم أتعبني، لكنني استيقظت عند غروب الشمس في مدة نوم لا تزيد على الساعة.. نهضت من سريري وكان همي شفاء السلطان لتنجح مهمتي وأسلم أنا وصاحبي.

فتحت الباب بهدوء وتنحنحت، لعل أحداً من أهل القصر يأتيني، فإذا أنا بالخادمة الضخمة تحييني فأشرت لها أنني أريد أن أذهب إلى السلطان في غرفته لأنظر حالته .. أشارت لي بأن الطريق مفتوح.

رأيت المصابيح المعلقة على الجدران وكأني لم أرها عصراً حينما صعدت إلى الغرفة ولعل الذي شد انتباهي لها أنها كلها موقدة، كانت

مائلة ترتكز على أعواد خلتها أنياب أفيال.. بل هي كذلك وما أكثر تماثيل العاج في هذا القصر..حتى إن بعض مقابض الأبواب مصنوعة من العاج.

دخلت غرفة السلطان متوجساً لا أدري أصواباً فعلت أم خطأ ارتكبت؟.. وجدت الغرفة كما كانت رطبة لا يضيئها إلا مصباحان يبعثان دخاناً نتن الرائحة. والنوافذ قد أوصدت.. وفي هذا الجو الرطب العفن كيف سيبرأ سلطان القبيلة.

اقتربت منه أكثر فراعني شخيره الذي يتصاعد منه .

حاولت أن أقترب لأطمئن على درجة حرارته وأعطيه حبة مسكن أخرى.. أو أبرد أطرافه إن احتاج إلى ذلك.. لكن نومه العميق طمأنني على صحته.. ولولا خوفي من تبعات إيقاظه لجسست جبينه، فأنا لا آمن إيقاظ السلاطين إذا غاصت في سباتها.. وذلك لسبب هام .. لأنني لا أعرف السلاطين أصلاً .. والحذر في موقف كهذا عندي حكمة من الحكم العظيمة ... تراجعت قليلاً. ولكن سمعت صوتاً:

- مساء الخير يا دكتور.

صوت عذب رقيق صدر من عند الباب. التفت نحوه فإذا بالأميرة بكل رزانتها ومسحة من الابتسامة وشت وجهها وإن لم تنفرج شفتاها عن لآلئها.

رددت عليها باحترام بالغ:

- مساء الخير سيدتي .. أرى السلطان في سبات عميق .. لقد أردت أن أقيس حرارته لكني خشيت أن أوقظه.

قرأت في وجهها الأسمر الجميل ابتسامة شكر وعرفان ولو لم تتكلم لفهمت ما تريد، لكنها أفصحت بقولها:

- أشكرك يا دكتور. إن له أياماً عديدة لم يذق طعم النوم مثل هذه اللحظة.

رددت مرتبكاً: بأن لا شكر على واجب .. وكان بودي أن أشكرها على منحها لي لقباً أعتز به.. دكتور .. سمعت هذا اللقب هذا اليوم مرتين أو ثلاثاً من أخيها.. لكنني كنت أسمعها وأنا خائف من خوض التجربة .. أما الآن وأنا أسمعها بصوت عذب جميل وأنا في الأمان ونجاح التجربة الأولى.. فإنني أعتبره لقباً جميلاً لا تبعة عليه .. وإن كنت لا أحمل شهادة طبيب من قبل.. لا بأس سعدت بهذا اللقب.. لكن خوفاً من غيرة (آدم) ظل يلازمني... إلا أنني أطمئن نفسي بأن خوفه على نفسه سيحفظ علينا هذا السر..

أيقظتني من حديثي لنفسي بقولها:

- لا بأس .. باستطاعتك أن تقيس حرارته الآن ..

- أخشى أن أوقظه يا سيدتي ..

- لا .. لا عليك ...

خطوت نحوه ثم رفعت يدي ببطء نحو جبينه، وما أن حطت كفي على جبينه حتى سكت الشخير وانفرجت أجفانه عن عينين ذابلتين .. وقد هدأت نفسه، ثم مط شدقه بابتسامة ثقيلة أراحت نفسي ...

فقلت بصوت هادئ:

- مساء الخير يا سيدي..

ترجمت ابنته تحيتي على الفور ثم ترجمت شكره وامتنانه لي ... كانت حرارته ما زالت مرتفعة لعلها كانت تصل ٣٩ درجة مئوية ..

لم أستخدم مقياس الحرارة بعد لأنني نسيته أصلاً في الحقيبة، لكن كفي دليلي في مثل هذه الحالات.. التفت إلى الأميرة وقلت:

- هل الطقس في الخارج بارد؟.

فقالت:

- لا .. بل جميل هذه الأيام... لماذا؟.

قلت:

- فلماذا أغلقتم النوافذ إذاً؟.

قالت:

- لقد جاء الكاهن هنا قبل قليل ورأى النوافذ مفتّحة فغضب وأمر بإغلاقها...

فقلت:

- ولماذا؟ هل هو يفهم في الطب؟..

هزّت رأسها ولم أقرأ تصديقها من تكذيبها لكنها قالت:

- هو يدعي أنه يعرف كل شيء، وهو طبيب القبيلة .. وحينما زارنا أمرنا أن نغلق النوافذ وقال: لا أريد الأرواح الشريرة أن ترى السلطان مسجى على الفراش فتؤذي أفراد القبيلة..

فقلت متعجلاً:

- وهل تصدقون ذلك؟.

كان سؤالي مفاجئاً لها .. صمتت قليلاً ثم قالت:

- نعم نصدقه .. كلنا نصدقه بقوة ...

ثم ترددت الأميرة قليلاً واستأنفت:

- لكنني وربما (نارون) نشك أحياناً... وفي بعض الأشياء.

قلت:

- ومن (نارون)؟.

ضحكت وقالت:

- أخي .. اسمه (نارون) وأنا اسمي (نارونا) ..

ابتسمت وقلت:

- اسمان جميلان كصاحبيهما...

شكرتني ثم التفتت إلى أبيها.. ثم قالت:

- والآن ما رأيك؟.

قلت وبصوت الواثق:

- إن كنتم تريدون الشفاء لجلالة السلطان فأرجو أن تتبعوا إرشاداتي .. لا بد من أن يستنشق هواء نقيّاً وأن يدخل النسيم البارد إلى الغرفة ليبرد جسده.

قالت:

- فلو مرت أرواح شريرة فرأت السلطان على هذه الحالة .. أو

أرواح طيبة فأخبرت الكاهن فماذا عسانا أن نفعل...

ابتسمت بحرارة وقلت:

- أرجو أن تصدقيني يا سيدتي.. لن تمر من هنا أرواح طيبة ولا شريرة....صدقيني..

دخل الأمير (نارون) وسمع كلامي وأنا واقف عند رأس أبيه فقال:

- ماذا تقول يا دكتور إبراهيم .. ليس هناك أرواح طيبة ولا شريرة؟!.

تداركت كلامي حتى لا أجد مصادمة – على الأقل في هذا الوقت - بمعتقداتهم المترسخة في ذاكرتهم العميقة التي رشفوها مع حليب أمهاتهم دفعة واحدة فقلت:

- أعني أنها لن تمر من هنا فترى السلطان.

فقال الأمير وقد وقف وسط الحجرة:

- وكيف تعرف أنها مرّت أو لم تمر؟! هل رأيت شيئاً منها من قبل؟.

لا أكتمكم سرّاً بأني ترددت في الإجابة.. فإما أن أكذب وأقول رأيتها وعندها سأدخل معهم في متاهات كثيرة وإما أن أقول لم أرها فسيقولون لماذا إذاً ترفض توصيات الكاهن الذي يراها ويعرفها معرفة حقيقية ...

لكن الله أسعفني بمخرج حين قلت:

- سيدي الأمير ... اقترب إلى هنا والمس جبين سيدي السلطان. أليست حرارته مرتفعة شيئاً ما؟.

تقدم الأمير ووضع يده ثم قال:

- نعم .. إنه محموم.

قلت:

- إذاً أرجو أن تأمر لي بشيء من الماء البارد والمناشف الصغيرة مثل تلك التي استخدمناها ظهر اليوم..

ثم أخذت قنينة الماء وأجلست السلطان الذي كان ثقيلاً رغم وخز عظام ظهره لكفي .. أسقيته حبة مسكن ثم أضجعته .. وقلت له:

- بالهناء والعافية.

وسرعان ما ترجمت ابنته ما قلت:

فرد لي بصوت ضعيف ورفع يده الحارة وأمسك بظهر كفي وقبضها ممتنّاً.

قلت للأمير:

- ألا تريد أن تفتح النافذة ليدخل الهواء النقي ويخرج الهواء الفاسد؟.

تردد قليلاً: ثم توجه إلى إحداها وفتحها على وجل وكأنه ينظر إلى شيء خلفها..

ثم نظر إليّ فقلت:

- ألا أفتح الأخرى؟.

فأشار إليّ أنه لا بأس، ففتحتها .. ثم جلست على الكرسي في طرف الغرفة فجلس بجانبي بينما بقيت الأميرة تشاهدنا من على طرف سرير والدها.

وبينما أنا جالس هكذا إذا أقبلت خادمتهم الضخمة وما أن ولجت حتى صكت صدرها المكتنز بثدييها الضخمين بكفها وقالت كلاماً لم أفهمه وهي تشير إلى النافذتين .. لكن كلاماً حازماً خرج من الأمير هدّأ من ثورتها لولا أن قسمات وجهها بقيت مقطّبة وإن كنت لم أتبين كثيراً تلك القسمات السوداء من خلال ومضات المصباحين .. لكن وكأنها

فهمت ما كنت أريده إذ أقبلت على المصباحين الآخرين فأوقدتهما ..ثم انصرفت وجاءت بالماء والخرق بسرعة. قمت بتبريد أطراف السلطان حت انخفضت درجة حرارته، فاستأذنت من الأمير، أغلقت النوافذ خوفاً من هجيع الليل وعيون الأرواح الشريرة كما زعموا !

❋ ❋ ❋

خرجنا من الدار واستأنفنا في الطريق نقاشنا

قلت للأمير وبكل أدب جم يليق بصاحب سلطان:

- عندما تعلمتم في المدينة اثني عشر عاماً هل كانت الأرواح الشريرة مكتوبة في المناهج يا سيدي؟.

رماني بنظرة مريبة ورفع صدره وهو ينظر إلى الأمام ثم عاد يخاطبني:

- حقيقة لم ندرس مثل ذلك.... لكن العلم الحديث لم يكتشف كل شيء حتى الآن.. ألا تؤمن أنت بالأشباح؟.

فقلت مستعجلاً:

- بلى ... بلى ... أومن بأن هناك خلقاً غيرنا على هذه الأرض لا نراها نسميها الجن، وهي مثل الناس، منها ما هو شرير ومنها ما هو

طيب .. وكل الأديان السماوية تؤمن بذلك. والتجربة الإنسانية تؤكد ذلك أيضاً.

انفرجت أساريره ثم قال:

- إذاً لماذا تنكر علينا حينما قلنا: يجب أن تغلق النوافذ حتى لا ترى السلطان على هذه الحال؟.

قلت:

- يا صاحب السمو.. هذه الجن مخلوقات روحية .. لكنها لا تضرنا إلا إذا نحن مكناها من أنفسنا ... هي أضعف من مخلوقات إنسية كثيرة لا نلقي لها بالاً ... نحن الذين نسلطها على أنفسنا ونجعل عدداً من الناس ربما نسميهم سحرة أو كهاناً أو مشعوذين يستخدمونها في أذانا.. بينما نحن قادرون على أن نمنعهم من ذلك.

تردد قليلاً فهمت أنه لا يريد أن أزج باسم الكاهن، ثم قال:

- إن التعامل مع هذه الأرواح علم وموهبة روحية وبهذا العمل يمكن للآلهة الأرضية أن تمارس قدسيتها .

أدركت بأنني أتحدث مع وثني لا يؤمن بالله الواحد الأحد فتفهمت موقفه، وعرفت أن الذنب ليس ذنبه على الأقل لأنه لم يسمع بدين يوحد الله سبحانه فقلت:

- ماذا تقصد بآلهة أرضية؟ هل لديكم آلهة تعبدونها؟.

تنحنح قليلاً ثم بدت عليه علامات الزهو الكاذب وقال:

- ألم يخبرك أحد بأن أبي هو إله القبيلة؟.

فوجئت بهذه المعلومة الجديدة، ليس لأنني لا أعلم بأن هناك آلهة بين زعماء القبائل ولكن لأني كنت أعالج إلهاً طرحه المرض قبل قليل.

أبديت أسفي لعدم علمي بذلك ولكن تواردت عشرات الأسئلة في خاطري ربما توقعني في متاعب أنا في غنى عنها.

سكتّ قليلاً ثم قلت:

- كيف ومتى أصبح سيدي السلطان إله أيها الأمير؟.

قال الأمير بزهو يتزايد:

- كان جدي الأكبر قد تشرف بالألوهية قبل أكثر من مائة سنة فلما مات أصبحت أرواحهم المقدسة تتناسخ بين الأبناء الملوك.

فقلت:

- وكيف حصل جدك على هذا الشرف العظيم؟.

نفخ صدره وعلت على وجهه مسحة الفخر ثم قال:

- حُكم على جدي بالموت لجريمة ارتكبها، وكان الحكم يقضي بتقديم المجرم إلى السباع في البرية، فربط جدي إلى شجرة ثم ترك هناك، فجاءته أفعى ضخمة جدّاً وتمسحت به ثم تركته، وجاءت كاهن القبيلة في المنام وأوصته بجدي وقالت إنه قديس قد امتلأ بالألوهية وإنها مقدسة هي فلم تستطع أن تؤذيه، فذهب الكاهن ففك رباطه وجاء به وقلده إلهاً ملكاً للقبيلة، فلما مات ورث القدسية ابنه ثم حفيده الذي هو أبي.

لم أستطع أن أخفي ابتسامة ندّت من بين شفتي، فصورة النصب والاحتيال التي رسمها الكاهن وجده همت إلى مخيلتي، لكني تداركت فسألته فوراً:

- وما هي مهام الكاهن عندكم؟.

- الكاهن هو بمثابة الوزير ومسيّر أمور القبيلة نيابة عن السلطان، وهو المسؤول أيضاً عن المحافظة على الثقافة والتقاليد، وهو الطبيب لكل أفراد القبيلة. بالإضافة إلى إدارة القصر واحتياجات الأسرة المالكة.

- إنها مهام كثيرة وخطيرة جدّاً، ولكن هل يستطيع القيام بها كلها وحده؟.

- لا .. بل يساعده عدد من الأتباع؟.

- هل يحظى بشيء من القداسة؟.

- أبداً فليس له من الخاصية القداسية إلا ما يمنحه له قداسة السلطان.

- بمعنى أنه ليس المسؤول عن الدين عندكم؟.

نظر إليّ ثم قال:

- بلى .. هو المسئول أيضاً.

قلت مبدياً تعجبي:

- يا له من وزير كاهن. وهل لديه علم بالدين؟.

- نعم هو أعلم من في القبيلة.

ثم نظر إليّ وكأنه برم من أسئلتي ثم قال وقد وشى وجهه بابتسامة باهتة:

- لعل هذه الإجابات تكفيك الآن أيها الدكتور المحقق.

ضحكت وقلت:

- أنا آسف أيها الأمير ولكنك تعرف بأننا نحن الباحثين نحب الثرثرة. أشكرك سيدي.

هزّ رأسه وقال:

- لا بأس.

ثم انصرف نحو ممر إلى اليسار ليتركني أكمل طريقي إلى غرفتي.

* * *

عدت إلى غرفتي لأجد (آدم) ما زال يغط في سباته لكنني ما أن صليت وجعلت أذكر الله وأشكره على ما منحني من دين وعقل وتوحيد حتى استيقظ وسألني عن ما فعلته فأخبرته، فقال بصوت خفيض وقد بدت عليه علامات الخوف والقلق:

- أنا خائف جدّاً من مغامرتنا تلك، المسألة علاج سلطان وليس عجلاً في الطريق.

نظرت إليه مبتسماً وقلت مبشراً:

- ليس مجرد سلطان، إنه إله كذلك.

ضحك وقال:

- ماذا؟ إله؟!.

فأخبرته بما دار بيني وبين الأمير. فلم يبد استغراباً لأن الكثير من زعماء القبائل في هذه النواحي يؤلهون أنفسهم.

مضت ثلاث ليال كنا حبيسي القصر مهمتنا الوحيدة هي علاج السلطان وتناول أطايب الطعام وحديث فلسفي تنقصه الحكمة.

❊ ❊ ❊

في صباح أحد تلك الأيام الثلاثة كنت جالساً مع الأمير في حديقة المنزل الأمامية ومنظر الجبل المقدس يتباهى أمامي بهيئته المهيبة، أردت إكمال الحديث عن الكاهن الذي طالما يبدي هو وأخته الكثير من الاحترام له، مما جعلني أتوق لرؤيته. فقلت للأمير:

- سمو الأمير، كيف يتم تعيين كاهن مثل هذا، هل هو من عامة الشعب أم رجل له صفات خاصة يتميز بها؟.

عدل الأمير من جلسته ليبدي لي أهمية ما سوف يتحدث عنه ثم قال:

- الذي يختار الكاهن هو الكاهن الذي قبله، فإذا وجد من يرى فيه الكفاءة لهذا المنصب عيّنه في حياته بمباركة السلطان، وربما يبقى معه عدة أشهر أو سنين قبل أن يسلمه المهمة، إما بموت أو عجز ثم يختفي الكاهن الأول دون أن يعلم أحد كيف اختفى ولا إلى أين ذهب؟.

- ألا يهم السلطان من يكون الكاهن الجديد؟.

- لا ... أبي يهمه الذي يتسلم المهمة أن يكون كفؤاً للمهمة ويعرف كيف يتعامل مع الأرواح والآلهة العلوية التي في الجبل المقدس بكفاءة.

- وهل يجب أن يكون الكاهن من نفس القبيلة؟.

اتسعت حدقتاه ورد بسرعة:

- لا .. لا .. غير ممكن ... يجب أن يكون الكاهن من قبيلة أو جهة مجهولة للجميع، هذه هي الطقوس ويجب أن نحترمها من أجل مصلحة أبينا الإله الأعظم.

سمعت هذه الجملة لأول مرة (أبونا الإله الأعظم)، فسألت مباشرة:

- ومن هو أبوكم الإله الأعظم؟.

نظر إليّ متعجباً:

- ألم أخبرك من قبل بأنه جدي؟!.

- آه .. آه .. آسف لقد نسيت .

قلت في نفسي يا لها من آلهة خداعة.. ويا لهم من كهنة نصابين...

سألته وأنا متوجس خيفة من عاقبة سؤالي فقلت مداعباً:

- فما هو رأيك الشخصي بكاهنكم الحالي أيها الأمير؟ أرجوك أخبرني بصراحة؟.

فقال الأمير:

- تقصد الكاهن (دارابا)؟! إنه كاهن عظيم .. والشعب يقدسه كثيراً.

قلت:

- وأنتم؟.

فقال:

- ماذا تقصد بأنتم؟.

قلت:

- أعني هل يقدسه السلطان والأمراء أيضاً؟.

قال بنبرة مراوغة ذكية:

- الشعب كله يقدسه .. يجب أن يقدسوه ما دام السلطان يقدسه .. هو لم يأت من فراغ إنه أتى ضمن سلسلة طولها مائة عام .. إنه

الحارس الأمين على ضريح مولانا العظيم.. وهو السبيل المقدس الذي إليه نصل إلى شفاعة مولانا الأوحد. لكن له حدودا معينة في القداسة بالنسبة للسلطان وذريته. نحن نقدره كثيراً ونصدقه فيما يخص الآلهة والأرواح. لكن تقديره يجب أن لا يزيد على قداسة السلطان. لدينا وصايا من الأجداد أن له حق الطاعة والتقدير وخاصة في هذه الأمور ولا نعصيه أبداً وإلا سوف تحل اللعنة على السلطان والقبيلة.

وقد لفت انتباهي تناقض الفكر عند الأمير، فالكاهن بالنسبة للقصر خادم وبالنسبة للشعب قديس، وبالنسبة للألوهية إله بلا تنصيب. ولكن هذا هو الفارق.

* * *

كنت أنتظر مقابلة الكاهن بكل صبر، وكان السلطان يسأل عنه كل يوم بشوق ويتألم لعدم زيارته .. ولولا أن صحة السلطان بدأت تسعد كل أهل القصر لظننت أن اللّوم سيقع عليّ قاسياً.. لأنني فتحت النوافذ على السلطان والكاهن هو الذي يأمر بإغلاقها.

في غرفة السلطان وبينما السلطان قد خرج للحمام سألت الأمير:

- هل من عادة الكاهن أن يغيب عن القصر مثل هذه المدة؟.

فقال:

- نعم إنه كثيراً ما يستدعى إلى الجبل المقدس فيبقى فيه ثلاثة أيام أو أكثر أو أقل.

قلت متعجباً وكأنني لم ألحظ جبلاً عندهم كان قد أدهشني منظره من قبل:

- الجبل المقدس؟.. أين هو؟ وماذا يصنع الكاهن فيه؟.

قال الأمير متعجباً:

- إنك تمزح! ألم يلفت انتباهك الجبل المقدس؟.. ليس هناك أعظم منه في هذه النواحي!.

قلت:

- أتقصد ذلك الجبل المخروطي الشكل المغطى بالأشجار والذي يقع جنوب غرب القبيلة..

قال:

- نعم .. هذا الجبل هو أشهر الجبال في المنطقة .. تسكنه الآلهة التي تتحكم في كل الأرواح الشريرة وغير الشريرة.

قلت:

- فما الذي يصنعه الكاهن هناك؟.

قال:

- إنه يذهب إلى هناك ولا يستطيع أحد أبداً أن يقترب من قمته إلا هو، حيث يقدم القرابين والاعتذار لأخطاء أهل القرية، ليعود بمغفرة ذنوب المذنبين .. وربما بمعاقبة بعضهم، وقد يصدر الحكم عليهم من هناك ..

ما هذا الكلام؟ .. وما الذي في رأس الجبل؟ إنها حقّاً طلاسم تحتاج إلى فك.

سكتُّ قليلاً أفكر فيما يقوله الأمير وهو كله ثقة بما يتفوه به، بل إني أظنه يعتقد بكل كلمة يقولها.

ظننت أن قلمي ينتهي مداده مما سأكتبه عن هذه القبيلة البدائية في مظهرها البدائية في تفكيرها البدائية في معتقداتها، إنني الآن أتحدث إلى ابن السلطة العليا والتي تعيش في قصر وتتسمى بالسلطانية والتي ما زالت تعيش بفكر ما قبل بعثة نوح ...

❊ ❊ ❊

في صباح اليوم الثالث استيقظت الساعة الثامنة وكانت نسائم الصباح تداعب صفحة وجهي الكسول، نظرت إلى سرير (آدم) فلم أره على غير عادة..

قلت في نفسي لعله خرج ليشمّ النسيم في الحديقة أو لعله تشجع ليخرج ويدور في الحي بين بني جلدته السوداء .. لكنه لم يخبرني.

وقلت في نفسي أيضاً أو لعله ذهب ليجلب لنا بعض التموينات من السيارة أو لعله سيدير محركها من جديد من أجل الثلاجة التي تعمل على بطارية السيارة، وفيها بعض الأمصال الخاصة بالأفاعي والعقارب ولا أشك في أنها فسدت لتوقف الثلاجة عن العمل.

ولم أستغرق طويلاً في التوقعات حتى وردني ظن بأنه ربما خاف من عاقبة أمرنا فهرب وتركني لمصيري مع هؤلاء الناس وما أن دارت هذه الفكرة في رأسي حتى انطلقت إلى النافذة ففتحتها وصوبت بصري نحو باحة القرية حيث تقف السيارة.

لقد كان ظني صحيحاً ... لقد اختفت السيارة أيضاً.. وليس لهذا معنى آخر سوى هروب (آدم) بها.

أخفيت قلقي وتوجهت إلى حجرة السلطان حيث وجدت الأميرة (نارونا) والأمير(نارون) جالسين أمام أبيهما وقد لبسا أحسن الثياب.

ألقيت عليهما التحية .. لكن القلق استعصى علي فلم أقدر أن أخفيه فقد فضحه أديم وجهي فقال الأمير:

- ما لي أراك متغيراً يا دكتور إبراهيم، ما الذي جرى؟.

أظهرت ابتسامة عدم اكتراث لكن يبدو أنها كانت باهتة وقلت:

- أبـداً سيدي لكن السيد (آدم) غير موجود ولم أر السيارة مكانها.

فقال بهدوء:

- لا تقلق، سوف يكون بخير.

ثم لم يزد على ذلك شيئاً.

كنت أعتقد بأنني قد قطعت شوطاً طيباً في توطيد العلاقة بالأمير .. فأردت أن أرضيه وأدخل السعادة إلى قلبه وقلب الأميرة .. فقلت:

- إن أباكما رجل عظيم ومتواضع جدّاً، فهو ينام على مثل هذا الفراش الذي ينام على مثله الكثير من شعبه.

تغيرت ملامح وجهيهما بسرعة .. مما جعلني أضغط بفكي على لساني كي لا ينفلت بكلمات أخرى قد تغضبهما.

أومأ الأمير برأسه وقال وأخته تفرك كفيها حرجاً أو غضباً وهي تنظر إليه:

- يا دكتور ... هذا هو إتيكيت القصر، السلطان لديه جناح ملكي فخم جدّاً في الدور العلوي لكنه لا يستطيع أن يرقى إليه .. ولا نريد أن يرى زواره من الشعب أننا نجلب مثل هذه الصناعات الأجنبية إلى بلادنا مراعاة لشعورهم ومحافظة على تقاليدنا وعاداتنا.

قلت للأمير وأنا أتصنع الأدب في نبرات صوتي:

- ولكن .. يا سيدي .. المحافظة على التقاليد والعادات يجب أن تكون حقيقية.

ثم أدركت بأنني ربما سأقع في إحدى ورطات لساني التي طالما دفعت ثمنها من قبل .. وأنا -كما تعرفونني- عادة أقول ما لا أفعل .. مثلهم ومثل كل المنظرين الذين ينتظرون من زعمائهم أن يفعلوا ما لايفعلونه هم .. فاستحييت من نفسي أولاً، ثم خشيت أن يتطور حديثي إلى معارضة داخل البلاط السلطاني .. معارضة ربما لا تتعدى الشكليات .. فألقم من أجلها حجراً وأي حجر.

فألجمت حنجرتي لساني الغليظ، ثم قمت بحركة عفوية نحو السلطان .. وقلت:

- يا سيدي .. إن السلطان الآن بحاجة إلى فراش صحي أكثر من هذا ..

لكن يبدو أن الأمير قد ضاق من كلامي ذرعاً فقال وبلهجة جافة بعض الشيء وهو يحدث أخته باللغة الإنجليزية.

- يبدو أن الدكتور يجهل الكثير من تقاليد الملوك.

فأجابته بصوت أكثر جدية لم أسمعها منها من قبل:

- ويبدو أيضاً أنه يتجاوز بعض حدوده كطبيب.

شعرت بالحرج بل تملكني الخجل .. لكنها عادتي الحمقاء لا أستطيع السكوت. أقول: لا أستطيع السكوت ولم أقل لن أستطيع، لأنه بإمكان من لديه سلطة مثل (نارون) أن يخرسني بكلمة واحدة، في تلك اللحظة وددت لو أن لدي مهارة أولئك الأصحاب الذين يرافقون الأمراء أو الملوك أو الرؤساء الذين يفهمونها (وهي طائرة) بمجرد النظرة الأميرية يخرس خرس الجماد بل يقلب كلماته إلى ما يريده الأمير، بكلمات معدودة ولو أنها تخالف كل ما قاله أو اعتقده أو آمن به.

يبدو أن حركاتي المرتبكة وبعض تعابير الحرج قد أدرت عندهما الشفقة.

فقالت الأميرة وربما لتخفف عني بعض الشيء:

- كيف حال السلطان هذا الصباح يا دكتور؟.

فرحت على الأقل بهذه الكلمات وبالنبرة العذبة التي خرجت بها فقلت:

- إنه بخير .. بخير، وهو أحسن حالاً من قبل .

فقالت:

- متى باستطاعته أن يقوم ويمارس حياته الطبيعية؟.

ترددت فأنا لا اعلم، لكن رددت عليها بسرعة:

- هو الآن بخير .. والشفاء بيد اللّه سبحانه .. يمكنه أن يقوم الآن ويتحرك لو شاء.

لم أر ابتسامتها التي كنت أنتظرها من هذه البشرى التي زففتها إليها، مع عدم علمي الحقيقي بحالة السلطان إلا أن حرارته انخفضت بشكل ملحوظ وأنينه اختفى والباقي على اللّه.

لكنها نظرت إلى أبيها ومنحته هو الابتسامة وحدثته بكلمات استطعت أن أفهم بعضها بالحركة ومعناها بان الدكتور يقول : إنك بخير.

أشار السلطان الشيخ بيده بمعنى أن هذا محال، فنظرت إلى الأميرة وقلت وأنا أتوجه إلى ظهره وكأني أريد أن أقعده "بالعافية " فوضعت يدي اليمنى خلف ظهره وأنا أرفعه وأقول بلغتهم كلمة أرددها معناها:

- أنت بخير ... أنت بخير.

تحامل الرجل على نفسه وردد أنينه الذي كنت أسمعه وهو يجلس ويستند إلى مخدته خلف ظهره.

انفرجت أسارير الشابين فظهرت مسحة فرح عجيبة على وجه أبيهما، وكنت أظن أن وجهه لا يتمتع بمثلها.

وفجأة دوّى صرير الباب الخارجي ذكرني بصوته الرهيب الذي سمعته قبل أيام فتخيلت أهل القرية تلك اللحظة ركعاً لا يرفعون أبصارهم.

ترى ما الذي فتحة الآن ولماذا فتح؟.

وكأن الأمير يقرأ أفكاري فأراد أن يجيبني قبل أن أسأله فقال:

- هذا الباب لا يفتح إلا للسلطان وأفراد أسرته أو للكاهن .. أو لضيف أجنبي يراد أن يعرف أهل القرية قدومه على السلطان، وقد فتح الآن للكاهن كما هو متوقع.

وعلى ذكر الأسرة فلم أكن قد أخبرتكم عن أم الأميرين فقد توفيت منذ زمن .. ولم يخبرني الأمير عن سبب موتها لكنني كنت أقرأ بين كلماته نهاية غير طبيعية لها .. وعلى كل فالسلطان أعزب كولديه.

لم تمر دقائق قليلة حتى سمعنا فحيحاً عند باب الضيوف وهو يدق بعصاه على أرض الممر الخشبي ويتمتم بكلمات لم أفهمها.

فتح باب الحجرة ففأجأني بوجه لطيف ممتلئ ضارب إلى الحمرة له عينان بارزتان محمرتا أطراف الحدقتين وكأنهما ملتحمتان بأشفارهما التي لا يسترها إلا القليل من الأهداب،مكشوف أسفل البطن، قد أدار رداءه على عنقه، تبدو صلعته الملساء وكأنها مشربة بالحناء.

في تلك اللحظة لا أدري كيف تغير شعوري نحوه ارتياحاً لا نفوراً كما كنت أتوقع قبل أن ألتقيه. لكن ما لبث أن راعني الأميران باستقبالهما له عند الباب الذي وقف عنده بكبرياء فالتزما كفه فقبلاه بذل وخضوع لا يتناسبان مع إمارتهما، ثم عادا إلى الخلف إكباراً له ليدخل.

وقفت أنا مكاني أراقب ما يدور.

كانت نظراته الثاقبة تتفحصني بسرعة .. وكأنه يستحثني على فعل ما فعله الأميران من تقبيل وخضوع. لكنني لم أتحرك من مكاني وبدلاً من ذلك منحته ابتسامة اعتبرتها منّة من عندي، فرغم هيبته في قلوب شعبه إلا أنني لم أحمل حينها أي هيبة له.

ولعله قرأ تعبيرات وجهي فعرف ما في نفسي نحوه فتجاهلني وأقبل إلى السلطان يهزّ عليه عصاه التي ملئت بتمائم وتعاويذ غريبة، خضع السلطان لتلك الحركات وطأطأ رأسه تحت تلك العصا الغريبة ومكث

دقائق وهو يقول كلمات لم أفهمها بالطبع بل لم أسمع منها كلمة من القاموس الذي تعلمته خلال تلك الليالي السابقة أو الكلمات التي علمنيها الأمير.

بالفعل لقد عزمت على أن أتعلم لغتهم أو بعضها فقد وهبني اللّه حفظ اللغات بشكل كبير، وكان الأمير معلماً جيداً.

ولما انتهى الكاهن تكلم مع السلطان قليلاً.. ثم نظر إليّ وابتسم ابتسامة باردة وهز رأسه ففهمت منها أنه يرحب بي ويشكرني.

جلس الكاهن أمام السلطان ثم تكلم مع الأمير بنبرات قاسية أحسست أن فيها أمراً أو نهياً.

لكن نظراته الناعمة للأميرة التي يمسح بها جميع جسدها ورقرقة عينيه جعلني أغار عليها منه بلا سبب أدركه من نفسي حينها.

كانت نظراته بالنسبة لي موضع شك .. والذي زاد الطين بلة عندي أنه ناداها فأقبلت إليه ووقفت أمامه صامتة فجعل يضرب بعصاه الغريبة على كتفيها وصدرها ويقول تعاويذه.

أشار لي الأمير بأن نخرج من الغرفة ونترك الكاهن مع السلطان فخرجنا معاً من عنده، وقد أزعجتني نظرات الأمير الشزرة فيّ.. فهززت رأسي مستوضحاً ونحن نصعد إلى الدور الاعلى.

قال:

- لماذا لم تركع وتقبل يد الكاهن يا إبراهيم؟

فقلت:

- ولم أقبل يده؟.

قال:

- هذه هي الأصول عندنا كان يجب عليك أن تركع وتقبل يده كما فعلنا .. ألا ترانا نحن نفعل ذلك ونحن الأمران؟.

فقلت:

- عفواً أيها الأمير .. هذه هي تقاليدكم أنتم أما أنا فلا تنطبق هذه التقاليد عليّ، فأنا من شعب آخر وضيف عندكم فحسب .. ثم إنني لا أخضع ولا أركع إلا لله لأن ديني السماوي يملي علي ذلك ... نحن لا نعبد الناس بل نعبد خالق الناس.

نظر إليّ بعينين ملؤهما الغضب .. ثم سكت وسكتُّ أنا حتى وصلنا صالة الجلوس .. فجلس بجانبي وجلست الأميرة التي ظهر عليها شيء من القلق أمامنا.

قال لها الأمير:

- (نارونا) .. ما بك؟.

فردت عليه بلغتهم كلاماً كانت فيه خائفة منفعلة ... دار بينهما حديث لم أفهمه، وبعد دقائق التفت إليّ الأمير وابتسم معتذراً وقال:

- تقول (نارونا) إن حركات ونظرات الكاهن الغريبة أخافتها، وإنه لم يفعل مثل ما فعل اليوم من قبل.

قلت للأمير بعدما ضقت ذرعاً بالطريقة الرسمية التي أتكلم بها معه، فأنا لم أتعود مجالسة أمراء أو أبناء زعماء:

- عفواً أيها الأمير (نارون) .. هل لي أن أتحدث معكما بحريّة أكثر؟ إني أشعر بأنني مقيد إلى حد بعيد.

قهقه الأمير وقال:

- دكتور إبراهيم .. تحدث كما يحلو لك .. هل تريد الحقيقة؟ لقد سئمت الطريقة الرسمية التي بيننا ونحن نعيش في بيت واحد .. صدقني أنا وأختي لم نعش من قبل مثل هذه الأيام التي عشتها معنا.. لقد صنعت منا طواويس في بيتنا.

ثم أشار بيده معلقاً: لا تستغرب فعندنا في الخلف مثل هذه الطيور.. نعم أنت من وضعنا في هذه الحال من الرسمية، نحن نحب البساطة، إننا شعب بسيط جدّاً، نكره التعالي في معيشتنا، نلبس ببساطة ونأكل

ببساطة ونتعامل مع الناس ببساطة .. لكنك أنت و(آدم) صنعتما منا قياصرة .. أرغمنا في الأيام السابقة على ارتداء نوع مخصص من الملابس لا نرتديه إلا في الحفلات الشعبية، والمناسبات الرسمية، لكن الطريقة التي نتعامل بها مع بعضنا بعضاً مملة..

ثم قام بعصبية مضحكة وألقى ببعض ملابسه وأخته مستغرقة في الضحك.

بُهتّ من هذا الانفجار، وعلمت أن داخل ذلك الأمير المسكين إنساناً يحب الحياة ويحب البساطة ويحب أن يعيش كبقية الناس .. مشكلته هو وأمثاله تكمن في سر الحاشية التي تضغط بكل تخلفها وكذبها وخداعها ونفاقها على أصحاب القصور فيحيطونهم بشكل من الحياة التي يستمتعون بها هم، وفي نفس اللحظة يغرسون في عقولهم اللاوعية أنهم مختلفون عن الآخرين وأن لهم حقوقاً غير طبيعية على الآخرين فينشئون على هذا الفهم ظانين أن ما يخالفها ضرب من الانشقاق على الحقوق التي يستحقونها على بقية الخلق.. وبهذا يحرمونهم من جزء عظيم من السعادة.

ألقى الأمير بنفسه على الأريكة وهو يقول:

- ياه .. كم كنت أكره الرسميات الفارغة، دكتور إبراهيم .. أرجوك ... لا أريد أن أسمع كلمة أمير (نارون) على لسانك أريدك أن تناديني

باسمي (نارون) أو يا صديقي وهي الأحب إلى نفسي، لأن الصداقة من أعظم قوالب الحب .. أليس كذلك يا (نارونا)؟... (وصاح باسمها)

هزّت (نارونا) رأسها بأدب وحياء وهي مبتسمة ولم تعلق.

التفت إلى الأميرة فقرأت على وجهها مسحة حزن وهي واجمة وكأنها تفكر في شيء ذي بال، فتذكرت حديثنا من قبل عن تصرفات الكاهن المريبة معها فعدت لذلك مشغوفاً بتجريح ذلك الدجال، فقلت موجهاً حديثي للأمير:

- عفواً ... كنت تقول بأن الكاهن ضايق الأميرة بنظراته وحركات غريبة أخافتها.

تذكّر الأمير وهزّ رأسه، وكأنه يريد أن ننسى الموضوع أو الخوض فيه وهو يقول:

- آه .. آه .. نعم ... الكاهن غريب الطباع ويتصرف أحياناً بما تملي عليه الآلهة. .. أحياناً.

ثم أومأ بيده وهو يقول: دعنا من هذا الآن .. وسوف ..

قاطعته الخادمة وقالت: إن أباه والكاهن يريدانه.

ذهب إلى الحجرة السلطانية وبقيت مع (نارونا) ، فأخذت أجاذبها الحديث فوجدتها مثقفة وغاية في الرزانة والعقل، مما زاد احترامي لها كثيراً وخاصة عندما أبدت عدم اعتقادها بالكثير من خرافات الكاهن لكنها مضطرة إلى التعامل مع تقاليد القبيلة حفاظاً على موروثاتهم الشعبية والسلطانية على حد سواء.

مكث (نارون) أكثر من ربع ساعة ثم عاد وقد تغيرت ملامحه وبدت عليه علامات الغضب الشديد الذي أظلم به وجهه الأسمر، وقف ينظر إلى أخته .. ثم رمى بجذعه على أريكة أمامي وأبدى ابتسامة كاذبة وسكت.

سألته أخته بقلق قائلة:

- ما الذي جرى يا (نارون)؟ .. لماذا أنت غضبان هكذا؟

لم يلتفت إليها لكنه أجابها بصوت متأثر:

- الكاهن يقول: يجب أن يغادر الدكتور حال انتهاء فترة العلاج على أن لا يتجاوز أسبوعاً من الآن، ويجب عليه أن لا يختلط بشعبنا ولا يكلم أحداً منهم.

لم يكن ذلك القرار مفاجئاً بالنسبة لي بقدر ما أزعجني تحديد الوقت بأسبوع، فقد كنت أتوقع أن أستغرق أكثر من أسبوعين للقيام

بدراسة أخرج منها بفائدة علمية عن تكوين وحياة هذه القبيلة التي لا يمكن أن تعبر عنها أسرة ملكية تعيش في قصر عاجي وتستخدم كل وسائل المعيشة المرفهة وتستقدم الطباخين من خارج البلاد، بينما تستف القبيلة التراب وتعيش في أكواخ الطين ومخلفات البقر مربين أعتى أنواع الجراثيم في أجسادهم المتهالكة، لا يعيشون إلا كفافاً ولا يلبسون إلا لحافاً ولا يتداوون إلا بتعاويذ وتمائم الكاهن. لأنه من أجل الحصول على معلومات حقيقية ودقيقة لا بد من النزول إلى الميدان والاطلاع من قرب على حياة العامة من أفراد هذه القبيلة.

قلت:

- فما رأيك أنت يا صديقي؟.

ابتسم مستحسناً هذه الكلمة لكن وجهه لا يزال ينثرني بأسفه لهذا القرار الجائر.

فمطّ شفتيه ونظر إلى أخته لعلها تقول شيئاً لكنها لم تسعفه .

فقلت:

- وهل من صلاحيات الكاهن أن يصدر أوامره على السلطان وأولاده؟.. أم إنه هو الذي يجب أن يأتمر بأمرهم، وينتهي بنهيهم.

زفر الأمير زفرة حرّى كادت تحرق فؤاده وأطرق إلى الأرض وقال بصوت مخنوق:

- لا أخفيك لقد ضقت ذرعاً من أوامر هذا الكاهن . صحيح إنه رجل طيب وقد فتح لنا مجالاً - كما قال أبي - منذ خمسة عشر عاماً، وساعد في تطوير بناء القصر وجلب الكثير من وسائل الترفيه لنا وهذا لم يكن للسلاطين وأولادهم من قبل في عهد الكهنة الذين سبقوه.

قلت:

- وهل هو بهذه الطيبة مع بقية الشعب؟.

تنبه الأمير لسؤالي وأطرق قليلاً وهو مصوب نظره الهادىء إليّ وكأنه يتذكر شيئاً وقال:

- مع بقية الشعب؟! لماذا؟ هل تساوينا بالشعب؟

- بالطبع لا .. فأنتم أبناء الإله وملوك القبيلة.

اتضح لي أن الحديث لم يعجب الأميرة فانصرفت من مجلسنا .. فأخفضت صوتي وقلت:

- صديقي ناورن .. هل تسمح لي بأن أتحدث بما أشاء وبكل صراحة؟.

أومأ برأسه وقال:

- نعم .

قلت:

- ولي الأمان؟.

ضحك وقال:

- هذه الكلمة لم أسمعها من قبل .. نعم لا تخف أنت صديقي.

قلت:

- هل للكاهن قصر هنا؟.

فقال:

- نعم .. هو قصر صغير ليس ببعيد من هنا ولا يوجد قصر بمعنى قصر سوى قصرنا وقصره الحقير.

قلت:

- وهل دخلتموه؟.

قال:

- نعم .. ولكن لا يوجد فيه تلك الرفاهية التي تتوقع؟.

- فكيف عرفت؟.

- لأننا لم نر فيه من ذلك شيئاً.

ضحكت وقلت:

- ألا تعتقد ياصديقي أنه يدخلكم من الباب الذي هو مثل الباب الذي تدخلونه منه؟.

اتسعت حدقتا عينيه وقال:

- لا أعتقد أنه يجرؤ على إخفاء شيء على السلطان، فهو يعرف قسوته.

فقلت بحذر:

- وهل يجرؤ السلطان أن يعاقب كاهناً؟.

تردد قليلاً وقد بدا التلعثم على جوابه:

- لم يحصل شيء من هذا من قبل لكن الكهنة يعرفون حدودهم.

- الحقيقة أيها الأمير أن الكهنة والوزراء والمستشارين بأنواعهم وشتى مشاربهم لا يترددون في العبث بالسلاطين ومقدرات السلاطين ورعايا السلاطين إذا ما وثقوا بهم ومنحوهم سيوفهم ثم قدسوا مساعيهم.

عقد الأمير جبينه وهو يكتم غيظه وقال:

- ماذا تقول؟ إن أبي هو من يتقدس في هذه القبيلة وليس الكهنة أيها الأبيض الساذج .... السلطان هو من يقدسه الآخرون وليس هو من يقدسهم.

لم أشأ أن أزيد في غيظه فآثرت الانسحاب بهدوء وقلت:

- صحيح .. نسيت ذلك.

استغرق الشاب ثواني يداري غضبه ثم قال بلهجة أقل حدة:

- صدقني يا إبراهيم لو أنك عرفت هذا الكاهن حق المعرفة لأحببته، إنه طيّب القلب ويفني وقته كله في خدمة القبيلة. إنه هو عيننا الصادقة التي ننظر بها إلى الشعب وهو يدنا الحنون على الشعب .. فبورك من كاهن طيب.

فقلت في نفسي : لا تثريب عليكم، وكل شعب عنده من أمثاله كثير، نسأل الله أن يخلصنا منهم في ديارنا وديار الضعفاء والمستضعفين.



مضى على بقائي في القصر ستة أيام وتماثل السلطان للشفاء وصار يأنس للجلوس معي ولحديثي الذي يجتهد ابنه في ترجمته وتوطّدت علاقتي بابنه (نارون) أما ابنته (نارونا) فلم تكن تجلس معنا كثيراً وإن كنت أرى نظرات الرضا عني منها حينما أناقش بعض المسائل التي تتعلق بالموروثات.



في إحدى المرات وفيما نحن جلوس عند السلطان، وأنا أريد أن أجامل السلطان والأمير دفعة واحدة، لأني أعرف أن مثل هؤلاء يستمتعون وبشدة حين يكون مدار حديث المجلس عن أمجاد وصفات أسلافهم وإن كان أسلافهم ممن هو غني عن التعريف بين الناس، ولكن ذلك منبعث من عقولهم اللاواعية ودون أن يشعروا حيث يمنحهم شعوراً ممتعاً بتفوقهم على ندمائهم، وإن كان بالفعل الفرق كبيراً في المجلس يدركه ويخضع له الجميع.

سألت:

- أين يقع ضريح جدكم العظيم؟.

فابتسم (نارون) وقال لي بصوت خفيض مع أن أباه لن يعرف ما يقول:

- انتبه يا إبراهيم واحذر أن تناقش مثل هذه المسائل أمام أبي أو الكاهن .. حتى لا تعرض نفسك للمتاعب.

لم ينته اليوم السابع حتى عرفت الكثير والكثير من تقاليدهم وعاداتهم بل ولغتهم البسيطة جدّاً والتي لا تتمتع بالقليل من الجمال كبقية اللغات المتحضرة. فما هي إلا ألفاظ تعبر عن ضروريات الحياة.

* * *

في اليوم الثامن جاءني الأمير إلى غرفتي فرحاً مسروراً، يتراقص ويضحك وكأنه يزف بشرى..

قلت له وأنا أمسح وجهي من الماء:

- أراك سعيداً ... ما الذي أفرحك هذه الساعة؟.

قال:

- بشرى ... لقد سمح لك والدي بالبقاء عندنا كطبيب للقصر.

أظهرت فرحي حينذاك لكن كلمته: (طبيب القصر) نغّصت مزاجي فلست طبيباً، وأجد في ذلك خداعاً لم أتعوده، ولولا خشيتي من عاقبة أخشاها لأخبرتهم بالحقيقة..

أومأت برأسي وأنا أوسع في ابتسامتي مظهراً فرحتي، ليس من أجل البقاء في القصر ولكن من أجل السلامة حتى أجد مخرجاً على الأقل.

ثم تغيرت قسمات وجهه وقد علاها شيء من الحرج وقال:

- لكن هناك شرطاً بسيطاً أرجو أن لا يزعجك.

قلت:

- ما هو هذا الشرط؟.

فقال:

- أن تصبغ جسدك باللون الأسود.. ليس أسود تماماً ولكن كبشرتنا تقريباً.

فاجأني هذا الشرط الغريب الذي لم أكن أتوقعه وربما بدا عليّ الفزع وأنا أقول:

- أصبغ جسدي باللون الأسود؟.

أومأ برأسه وهو يضحك أن نعم.

- ولكن هل سيزول هذا اللون بسهولة؟

ضحك بصوت عال وقال وهو يقهقه:

- يبدو أن لوننا لا يعجبك يا إبراهيم، نحن أيضاً لا يعجبنا لونكم أيها البيض.

رددت محرجاً:

- اللّه سبحانه قد قسم الألوان وجعل كل شعب راضياً بلونه.

فقال وهو يهز رأسه:

- في الحقيقة لا أدري، هل يزول اللون بسهولة أم لا؟ ولكن دعنا نجرب.

قلت:

- ماذا؟ نجرب! نجرب في ماذا؟ ماذا لو لم يزل؟ هل أرجع إلى أهلي بلون غير لوني الذي ذهبت به ؟ صدقني ستطلقني زوجتي.

ضحك هو وقال:

- لا عليك لونك الباهت سيعود إليك بسهولة، سنكسوك بمجرد صبغة فقط وليس جلداً. لأننا بخلاء بجلودنا عليكم فأنت لا تستحقونها.. وهذه الصبغة مادة طبيعية تزول بسهولة.

قلت وما زال الشك يعتريني:

- لا مانع عندي إذا كنت تضمن لي ذلك.

قال وهو مستغرق في الضحك:

- سأضمن لك ذلك، وإن لم يزل أضمن لك أن أعيد لك لونك بسلخ الجلد الأسود ليبدو جلدك الأبيض الذي تريد.

ثم استأنف وهو سعيد: وتلبس مثل لباسنا؟.

قلت:

- وما المانع؟! يسعدني جداً أن ألبس مثل لباسكم الجميل هذا.. ولكن أتمنى أن لا أندم على ذلك.

انشرحت أسارير الأمير وقبض على كتفيّ وقال:

- أشكرك يا صديقي.. لقد أسعدتني كثيراً بقبولك هذا الشرط.. أقسم لك بأنك لونت لوحة حياتي القاتمة.. لم يكن عندي من قبل صديق سوى أختي وليس عند أختي سواي فجئتنا وغيرت مجرى حياتنا.

هيا بنا إلى الخادمة إنها في الأسفل تصنع الصبغة، لقد أمرتها أن تفعل ذلك لأنني كنت واثقاً من موافقتك..

قلت له:

- أفهم من ذلك أنك ستقوم بصبغ وجهي ويدي فقط؟.

ضحك بصوت عالٍ وقال:

- لا.. بل سنصبغ جسدك كاملاً.. لأنه سيظهر بطنك وظهرك وساقاك إذا لبست زيّنا الرائع.

لم أجد نفسي إلا وأنا أتبعه، ومع ذلك فإنه لم يتبادر إلى ذهني فرج قريب، ف(آدم) قد فرّ قبل أيام وتركني لمصيري.

نزلت معه إلى حيث يريد ودخلت إلى حمام واسع وجدت فيه العملاقة السمينة واقفة جامداً وجهها لا يعبر عن شيء، أشارت إليّ بأن أخلع ملابسي، ترددت برهة في خلع بنطالي لكنني خضعت أخيراً لأمرها وصممت على عدم خلع سروالي الداخلي ومع ضحكات الأمير بدأت المرأة تغطي رجلي بالسواد حيث تغمس خرقة صغيرة في الجرة وتمسح به بشرتي البيضاء، وانتشر السواد في جسدي شيئاً فشيئاً وأنا أودع لوني الذي أعرفه منذ أن رأيت وجهي في المرآة.. بل لقد خيّل إليّ أن الصبّاغة ترسم مخلوقاً آخر غير إبراهيم.. وكان وجهي ثم قمة رأسي التي انحسر عنها كثير من الشعر آخر ما غطاه السواد.

أصبحت إنساناً آخر.. لا أدري حينها هل ما زلت إبراهيم أم أصبحت حاماً أخا سام..

فتشت قلبي.. وعقلي فوجدتهما يتشاوران في من سأكون؟ بعد أن تجف الصبغة التي غطت كل ما ظهر من جسمي.

قال الأمير وهو يضحك وكأنه يسخر من شكلي الجديد أو يتشفّى فيّ:

- ما رأيك الآن يا دكتور إبراهيم؟ ..

غالبت شفتيّ لأخرج ابتسامة وقلت وأنا أحاول كتم زفرة باردة.

- وماذا عساي أن أقول؟ .. أتمنى أن يعود إليّ لون جلدي الذي أعرفه يوماً ما.. ليس هناك أجمل من أن يبقى الإنسان متلبساً بأديمه الذي خلقه الله عليه.. دون تلون ولا خداع..

أخرجاني شبه عريان إلى الفناء خلف القصر وهي المرة الأولى التي أراه فيها.. لم يكن فيه شيء مما يدل على أنه فناء لقصر ملك.. لكن فيه أنواعاً من الحيوانات والطيور الأليفة التي وضعت في حظائر دون ترتيب يليق بالقصر، كما لفت انتباهي وجود حصانين جميلين للغاية في إسطبل لا يليق بالخيل الكريمة، وبينما كنت أقف أنظر إلى تلك الحظائر التعيسة، قالت المرأة بلغتها بصوت أجش:

- ابق هنا واقفاً حتى تجف.

ثم عادت سريعاً.

كانت ابتسامات (نارون) الساخرة تزيدني حنقاً حتى كدت أمسك بشعثة رأسه.. لكنه بقي بعيداً عني.. ومع هذا فهو لا يزال متوشحاً بهيبة الإمارة.

بتلك الصبغة أصبحت واحداً من القبيلة شكلاً لا مضموناً فقد كان اللباس الذي أرتديه موضع سخريتي أكثر مما هو عند (نارون).

❊ ❊ ❊

وكان اليوم التاسع يوماً غير عادي فقد سمعت من (نارونا) أن هناك حكماً قضائيّاً سينفّذ في ساحة العدل في القصر، ورغم سؤالي عن هذا الحكم إلا أنها أكّدت بأنها لا تعلم.. وأنها ملّت من هذه الأحكام ولا يعجبها الحضور.

بالنسبة لي فإن الأمر مثير للغاية إذ سوف أحضر هذا التنفيذ وأقابل القوم بعد أن ضقت ذرعاً بهذه الجدران التي سئمت من البقاء فيها كسجين أياماً مضت وكنت أتعجب لصبر سكان هذا القصر على هذه الإقامة الجبرية ..

رأيت (نارون) في الصالة وهو يلبس أفضل ما رأيته يلبس منذ أن قدمت إلى القصر، وقد شدّ حزامه وأصلح طوقاً جلديّاً مرصعاً ببعض القطع الذهبية فوق رأسه.. أقبل إليّ وأنا أرتدي بجامة النوم عند باب الغرفة فقال:

- ألم تخبرك (نارونا) بأن هناك تنفيذاً لحكم قضائي في ساحة العدل؟.

قلت:

- وهل يسمح لي بالحضور؟.

فقال:

- بالطبع.. لقد أصبحت واحداً من أصحاب القصر.. البس الملابس التي أعطيتك إياها بالأمس وانزل إليّ فأنا أنتظرك في الأسفل..

ارتديت ملابسي البدائية على جلدي الأسود الجديد ونزلت مسرعاً إلى الأسفل حيث ينتظرني الأمير الذي قال:

- سنخرج الآن إلى الساحة حيث ينتظرنا كبار القبيلة ثم يخرج إلينا السلطان .. أرجو أن تتصرف مثل ما أقول لك.

أومأت رأسي بالموافقة، وأشرق وجهي تعبيراً بالسرور لما سأراه اليوم من أحداث ووجوه جديدة من الشعب.. ولم أقف مع نفسي لحظة واحدة وأسألها ماذا عساه سيكون هذا الحكم وفيمن سيكون؟.

خرج الأمير وتبعته.. وما أن خرجت قدمه خارج القصر حتى تغيرت مشيته البسيطة أمامي، فقد رفع أنفه وأظهر لمن أمامه غاية الكبرياء

التي لم أعهدها منه من قبل.. وكانت ساحة العدل هي تلك المساطب التي رأيتها عندما دخلت الفناء أول مرة وقد ارتص عليها رجال كثيرون من شيوخ القبيلة .. فلما أقبل عليهم الأمير وقف الحاضرون، ومع أنهم كانوا من علية القوم إلا أن ملابسهم كانت رديئة وأجسامهم نحيلة يميّز الواحد منهم شعره الأبيض الناصع الذي كسا رأسه الأسود وتناثر على خديه وذقنه..

وما أن قربنا حتى انحنوا جميعاً وهم يتكلمون بعبارات لم أفهمها، مررت مع الأمير أمامهم وأنا أشعر بشيء من الاعتزاز والزهو وابتسامتي تكاد تشق شدقيّ، وكأن الحاضرين يرحبون بي مع الأمير، رغم علمي أن هذه المراسم التبجيلية لشخص الأمير وليس لي منها شيء، فما أنا إلا تبع له، وليس لي من التكريم إلا كرسي يناسب مكانتي من الأمير أما الترحيب والتصفيق والانحناء فإنما هو للأمير وحده. ولو أن هذا هو شعور كل من يرافق أصحاب الجلالة والفخامة والسمو والمعالي لكان أكرم لهم.

سار الأمير حتى إذا وقف عند كرسيه الحجري استقاموا، جلس وجلست عن يمينه حيث أشار، وقد رأيت على يساره كرسيّاً ضخماً مصنوعاً من الحجر وعليه رسوم ونقوش.. أما الطرف الأيسر فيقع فيه كرسي مثل كرسي (نارون) علمت فيما بعد أنه كرسي الكاهن، والكرسي الذي أجلس عليه إنما هو مخصص لنارونا التي لم تحضر.

كان الطقس جميلاً جدّاً والسحاب الأبيض يتطارد تحت أشعة الشمس الدافئة.. الوقت ما زال باكراً وما زلنا لم نتأذَّ من أشعة الشمس التي ستشرف علينا من خلفنا لترسل سهامها الضوئية المحرقة.. أما الجبل المقدس فهو يقف بكل هيبته أمامنا تظلله السحب وتنضح عليه ببعض ضبابها الأبيض..

التفتُّ إلى اليسار فرأيت باب القصر وقد وقف عنده أربعة من الرجال العمالقة الشداد وفي يد كل واحد منهم رمح عظيم يليق بصاحبه، وما هي إلا دقائق قليلة حتى خرج السلطان بهيبة لم أره فيها ولم يخطر ببالي أنه يتمتع بها من قبل وكنت أتوقع بأنه لا يزال تحت وطأة نقاهة المرض الذي ألمّ به.

والحقيقة أن ذلك الشعور الذي انتابني إنما هو شعور لحظي يصيب كل من قرَّبه صاحب المقام منه أو من مجلسه وهو لا يتوقع أو يستحق ذلك التكريم..

لقد رأيت في ذلك السلطان - وهو سلطان قبيلة لم تكن ذات شأن في العالم - ما جعلني من الداخل أرقص طرباً لأنني ضيفه، لا أدري هل سيتملكني مثل ذلك الشعور لو كنت في رعاية زعيم غيره من العالم المتحضر.

لكنني أظن أنه يشاركني ذلك الشعور كل ضيف متملق لأي زعيم مهما كان قدره على وجه الأرض.

على كل طلع علينا السلطان المهيب الذي كان قبل أيام قليلة يئن بين يديّ وعيناه ترجوانني بأن أفعل ما بوسعي لأنقذه من الهلاك،كان تكبره اليوم يليق به إلى حد ما، لكن ما أزعجني كثيراً هو همهمة الحضور وركوعهم المنخفض جدّاً له حتى الأمير نفسه الذي بالغ في الركوع.. هممت أن أركع لكنني صمدت أمام شزرات الشيوخ الذين كادوا (يأكلونني) بأعينهم حينما جلس السلطان على كرسيه وهو يشير لهم بالتحية ونظر (نارون) إليّ معاتباً ثم صرف نظره إلى أبيه متبسماً له ومرحباً به وربما معتذراً لما قمت به من صلابة في الظهر وربما في الرأس ايضاً.

وقف حارسان عملاقان برمحيهما الطويلين خلفه.

وجلس القوم.. وكان عجبي أنني لم أر الكاهن بينهم فظننت أنه سيأتي متأخراً..

التزمت الصمت وقد هممت أن أهمس في أذن (نارون) لكنه تغيّر عليّ كثيراً فهبته، فقد كان يجيل نظره هنا وهناك وكأنه لا يريدني أن أتكلم معه في ذلك المجلس بشيء خوفاً أن أحدث حماقة من حماقاتي كما يعتبرها أحياناً.

شعرت بأنني في مأتم لطول سكوت الناس وكأن على رؤوسهم الطير، وما هي إلا لحظات حتى دخل من الباب الكبير المفتوح ما يقرب من عشرة رجال يسوقون شاباً هزيلاً أمام حرابهم وقد ربطت يداه خلف ظهره، وقيدت قدماه بحبل لتقصر خطاه.

سار حتى وصل منتصف الميدان فوقف ثم ركع أمام السلطان ثم تراجع قليلاً حتى وصل إلى جذع شجرة مغروس في وسط الساحة أمامنا وفيه حلقة من حديد صدئة كنت قد لاحظتها عندما دخلت القصر أول مرة وتشاءمت منها.. ثم برك بقوة الحراس وربطت يداه خلفه في الحلقة.

كانت شجاعة ذلك الشاب وصبره نادرين لم أر مثلهما في رجل قبله وهو ينظر إلى الجميع بمن فيهم السلطان بثبات وشموخ.

قام رجل بجانبه وتحدث طويلاً فهمت بعض حديثه وفات عليّ أكثره.. فلم أصبر حتى همست إلى الأمير وقلت:

- أرجوك ترجم لي ما يقال، فأنا كالأبله بينكم لا أعرف ما يحصل.

فهمس لي قائلاً:

- إن هذا الرجل الذي يتلو البيان هو مسؤول الأمن عندنا وهو

الآن يخبرنا بأن هذا الرجل واسمه (لارو) قد سرق سخلة من الغنم الخاصة ببيت مال القبيلة.. وقد حكم عليه الكاهن بسجنه لمدة خمسة أشهر لكنه تكلم في الكاهن وهو في السجن بما لا يليق، وتعتبر غيبة الكاهن عندنا من الجرائم الكبيرة، والتي يحكم فيها السلطان بحضور مجلس القبيلة ليحكموا عليه، ولأن الكاهن هو المعتدى على عرضه فإنه لم يحضر..

سكت الأمير حينما تكلم السلطان الذي نطق بصوت ثقيل:

- ما تقول أيها الرجل في التهمة الموجهة إليك؟.

جاهد الرجل نفسه ليتكلم بصوت مسموع جريء وهو يقول:

- سيدي السلطان.. إنني رجل فقير جدّاً وكاد أطفالي يهلكون من الجوع ومرت الأغنام ببيتي مساءً وكان من القطيع سخلة صغيرة تتبعه بقرب كوخي التعيس حين كان يتضاغى أطفالي من الجوع فهم لم يأكلوا طعاماً منذ يومين فأمسكت بها وذبحتها وأطعمتهم وقلت لا يضرني ما فعل بي بعد ذلك.

وبالفعل فقد عرفوا فعلتي وتحملت العقاب وحكم علي بالسجن خمسة أشهر، وقد بلغني أن أهلي يكاد يهلكهم الجوع بسبب سجني، فاشتد حزني وغضبت لسجني وقلت ما قلت.

قال السلطان:

- فماذا قلت؟

طأطأ الرجل رأسه ثم قال:

- قلت يا سيدي: يا للعجب..!! أيحاسبونني على سخلة هزيلة أنقذت بها أطفالي من الهلاك، وقد أتخم الكاهن وخدامه بأموال القبيلة. أعظمت السخلة في بطون أطفالي الجائعة ولم تعظم الثيران في حظائرهم.

سيدي السلطان، الناس ترى ما يفعله أهل السلطة باسمكم وقد لا تعلمون أنتم بذلك، لكن ألسنتهم تخرس خوفاً من سطوتكم.

اشتد غضب السلطان المنهك فصاح بالشاب والأمير يترجم لي:

- اخرس أيها الأحمق، إن ما يأخذه الكاهن وخدامنا إنما هو حق مفروض لهم، بتعبهم في خدمة سلطانكم وإلهكم الأعظم الذي به تهابكم القبائل من حولكم. إنكم وأرضكم وما تملكون ملك لنا ورثناه.

ثم التفت إلى الشيوخ وهو في شدة غضبه وهو يكمل حديثه: أليس كذلك أيها الشيوخ؟.

قام الشيوخ من فورهم وحنوا رؤوسهم وهم يقولون:

- كلنا فدى لك يا سيدي.

طأطأ الشاب رأسه.. وقال بصوت خفيض:

- آسف يا سيدي ولن أعود إلى مثلها..

نظر السلطان إلى يمينه ثم إلى شماله.. ثم قال:

- ما رأيكم أيها الرجال في هذا المجرم؟.

كانت ترجمة (نارون) سريعة إلا إنني كنت أتابعه بتركيز شديد رغم سوء لغته الإنجليزية..

همهم الرجال ثم قال واحد من اليسار:

- نرى أن يقطع لسانه يا سيدي.. فالكاهن هو رمزنا.

وقال آخر:

- بل يقتل حتى لا يتجرأ أحد على مثل هذه الفعلة الشنيعة.

وكثر اللغط والحديث، وكانت كلماتهم وأحكامهم تدوي في رأسي كالمطارق.. بل شعرت بالرعب والخوف من هذه الأحكام الهمجية الجائرة.

ضرب السلطان بكفه على مسندة كرسيه الحجري فسكت الجميع وقال بعد زفرة غضب:

- برحمة من السلطان فقد حكمنا على هذا التعيس بقطع لسانه وتركه حيّاً لأطفاله وزوجته.

كدت أصاب بالغثيان من هذا العدل الذي بدأه بالرحمة.. وتصورت السلطان ضبعاً مقعياً على حجر وليس ببعيد من ذلك.

ألأنه تكلم في خدام السلطان يقطع لسانه؟ يا لقسوة الإنسان حينما يتسلط على أخيه الإنسان.

اغرورقت عينا المسكين بالدمع ورأيت عضلتي فكه الهزيلتين ترتعدان.. وهو ينظر بجزع في الرجل الذي سل شفرته وتوجه إليه لينفذ الحكم.

لم أتمالك نفسي إذ قمت مسرعاً ووقفت أمام السلطان وحاولت عبثاً أن أميل قليلاً تحية للسلطان لكنني وقفت أمامه بخشوع يليق بالموقف، وقلت بلغتهم وبركاكة وبصوت متأثر جدّاً:

- أرجوكم يا سيدي أن تهبوه لي فأنا ضيفكم، أرجوكم أن تعفوا عنه لأجلي ولا تقطعوا لسانه.

وجم السلطان وضيّق في عينيه وهو ينظر إليّ بعمق.

توقف الجلاد ثم استمر في مشيته نحو الضحية لكن الأمير صرخ فيه قائلاً:

- توقف أيها الوغد أما ترى السلطان يتحدث إلى ضيفه؟.

قال السلطان بهدوء:

- إن هذا أخطأ كثيراً على أهم رجل في القبيلة بعد سلطانها، وتجرأ بالحديث في حضرتنا.

قلت بتودد:

- صحيح أن جرمه كبير ولكن عفوك أعظم. أرجوك أعتقه من أجلي ومن أجل أولاده ... أرجوك يا سيدي .. أرجوك.

سكت الجميع وهم يستمعون إلى حواري مع السلطان فأومأ برأسه، وقال:

- سأعفو عنه حتى يأتي الكاهن ثم يحكم عليه بما يشاء.

قلت وأنا أبالغ في استعطافي له:

- أشكرك أيها السلطان العظيم على الكرم والعطف العظيم على رعيتك.. لكن أرجوك يا سيدي أن يكون عفوك غير مشروط.. فأنت تستطيع أن ترضي الكاهن الذي يسعده أن يراك مسروراً بالعفو.

هزّ رأسه وأشار بيده إلى الجلاد أن يبتعد عن المسكين، تراجعت قليلاً ثم توجهت إلى كرسيي ورغم ابتسامة الرضا التي ارتسمت على وجه (نارون) إلا أن قلبي جعل وجيبه يتزايد بل إن رجلي بدأتا ترتعدان.. ولا أدري لماذا كانتا في ذلك الموقف العصيب صامدتين فلما استراحتا ارتعشتا.

أمر السلطان بأن يفك قيد وأغلال الشاب التي فيه فلما وقف انطلق إلى السلطان فقبل قدميه وبالغ ثم التفت يمنة ويسرة ثم أطلق قدميه للريح نحو الخارج على ضحكات الشيوخ من حركاته من شدة فرحه.

قام السلطان على زئير الأسد الهصور في الأخدود والذي ذكرني بأن هناك في الأخدود ملكاً للغاب أشد بأساً من سلطان القبيلة لو كان حرّاً طليقاً.

خرج الرجال ودخلنا القصر.

٤١

في عصر نهار اليوم التاسع لاحظت في القصر حركة غريبة لخدام القصر وبينهم طباخٌ أبيضٌ شرقي السحنة لم تتلطخ جلدته بالسواد مثلي.. ورأيتهم يروحون ويجيئون إلى المطبخ ويجلبون بعض الأواني المليئة بالطعام للصالة الرئيسة.

مرّت الأميرة نازلة السلم وأنا واقف بقربها أنظر إلى تلك الحركة فمنحتني ابتسامة عذبة.. وقالت بصوت وقور:

- مساء الخير يا دكتور.

رددت على السلام بأحسن، منه وترددت في السؤال:

- عفواً.. هل......

ثم سكتُّ وهممت بالانصراف، التفتت إليّ وقالت:

- عفواً دكتور ... هل كنت تسألني عن شيء؟.

آثرت السكوت فقلت:

- لا ... لا ... أشكرك سيدتي.

وما أن دخلت الغرفة وجلست على طرف سريري أنظر من خلال النافذة إلى ساحة القصر وطرف ذلك الأخدود حتى صرّ الباب العظيم وفتح.. فأقبل خلاله الكاهن ومعه حاشية كبيرة وفي أيديهم مشاعل وعلى رؤوسهم أطباق فارغة.. حتى وقفوا عند باب القصر..

شغلتني هذه المراسم ووددت لو أنني أنزل إليها فأشارك فيما يصلح لي منها.. وفيما أنا مستغرق في التفكير إذ طرق باب الغرفة ثم فتح فإذا بالأمير يدخل عليّ وقد لبس لباساً آخر غير الذي في الصباح لكنه كان أقل زينة .. وهو يتبسم وقال:

- هل تريد أن تذهب معنا يا إبراهيم إلى مرقد مولانا العظيم؟.

فرحت أولاً للخروج، ثم لمشاركتي شيئاً من أنشطتهم العامة. لأطلع من قرب عليها وأسجلها.. ورغم أنني أتيت إلى هذه الصحاري لدراسة سلوك القبائل البدائية إلا أن خوضي مثل هذه التجارب السابقة أفقدني الكثير من الحماسة للكتابة فالوقائع كما أتخيلها تحفر في ذاكرتي حفراً.

أظهرت ذلك الفرح بالقبول والشكر لكنني قلت له:

- لكن أرجو أن لا تنتظر مني ركوعاً أو سجوداً لأحد. فدينكم لكم

ولي ديني.

فضحك وقال:

- أعلم وأتفهم ذلك .. لكن ..

فقاطعته وقلت:

- كما أرجو أن تشرح لي كل شيء بدقة.

أومأ رأسه بالإيجاب وقال:

- هيا بنا.. هل أنت مستعد؟.

ارتديت ملابسي القبلية وخرجنا على الفور.. وفي الطريق سألته عن المناسبة؟.

فقال:

- إننا في هذا المساء نقدم القرابين والشكر للآلهة على سلامة السلطان..

فقلت:

- وما هذه القرابين؟

فقال:

- بعض الأطعمة والذهب..

هززت رأسي مستغرباً.

فقال:

- كأنك متعجب!.

فقلت:

- من الذي يأكل هذه الأطعمة. ويأخذ هذا الذهب؟.

فقال:

- الآلهة.. نحن لا نراهم لكن دليلنا على قبولها اختفاؤها في صباح اليوم التالي أما إذا وجدناها في اليوم التالي ولم تؤخذ فإن معنى هذا أن الآلهة لم تقبلها ولا بد أن نقدم غيرها مما يخبرنا به الكاهن الذي يتصل بهم فيخبرونه.

ندّت من جوفي ضحكة لم أستطع حبسها، فقال وقد ضيّق عينيه جادّاً وما زالت في وجهه بقية ابتسامة باردة.

- لماذا تضحك؟.. هل في الأمر ما يضحك؟.

قلت:

- وأنت الشاب المتعلم... هل تؤمن بهذا وتصدقه؟.

تردد قليلاً ثم قال:

- في الحقيقة .. أنا أومن بهذا إلى حد ما ولكنني أعتقد بأن مولانا جدنا العظيم هو طريقنا إلى الخالق نتشفع به ونتبرك به. هذا هو الذي أجزم بنفعه أما الآلهة فلولا ما أراه من أمور حسية لما صدقت.

فوجئت بذكره الخالق فقلت:

- وهل تؤمنون بوجود خالق؟

قال (نارون):

- نعم.. وقد عرفنا عليه مولانا قبل أن يموت وقال بأن هناك بعد الموت حياة أخرى سنحاسب فيها. لذا فهو الواسطة بيننا وبين الخالق..

أردت أن أسأله سؤالاً آخر لكنه قاطعني وقال:

- هيا بنا ودع الثرثرة.

نزلت وإياه إلى البهو وقد ارتصت أطباق الطعام وبعض الصواني الصغيرة التي وضعت فيها الحلي الذهبية على الأرض.

دخل رجال الكاهن مطأطئي الرؤوس للأمير ثم وضعوا تلك الأطباق في أطباقهم التي أقبلوا بها وحملوها على رؤوسهم ثم خرجوا في صف

واحد متتابعين حتى آخر واحد ثم وقفوا في الفناء واستداروا نحو اليسار.

وقف الكاهن آخرهم لكنه مستقبل وسط الباب متكئ على عصاه الغريبة ينتظر خروج السلطان.

انتظرت مع الأمير حتى نزل علينا السلطان بأبهته وخلفه ابنته (نارونا) فمنحنا ابتسامة باردة ثم أشار إلينا بالمسير فتبعناه مع (نارونا) التي كانت تنظر إليّ بإعجاب.

سار الجميع في موكب كان السلطان في المقدمة وخلفه مباشرة الكاهن يهز عليه عصاه العجيبة وهو يهمهم بكلمات غير مفهومة، وسار بجانبه الأمير الذي توسطني أنا وأخته.. وارتص الباقون خلفنا خرجنا من الباب الرئيس.. وهبطنا الدرجات التعيسه حتى توسطنا برحة القرية وصار نسيمها العفن مع الغبار الذي تثيره الأقدام يكبس على أنفاسي حتى كدت أختنق.

مررنا بالشَّعب الذي ارتص على جانبي الطريق وهم يصفقون ويحيون السلطان ويركعون له وبياض أسنانهم تشق الغبار شقاً وقد تبع الموكب عدد غفير منهم. سرنا ما يقرب من كيلو متر نحو الشمال ثم انعطفنا نحو الغرب حيث نرى من بعيد في الجهة الجنوبية الغربية الجبل الذي يقدسونه. سرنا ما يقرب من كيلو متر آخر

حتى أصبح الجبل في مواجهتنا مباشرة فبدأت أهازيج غريبة ترتفع قليلاً قليلاً، هي بالنسبة لهم غناء لكنها بالنسبة لسمعي نشاز من صياح.

اخترقنا بعض الهضاب الصغيرة التي اكتست بعضها بالشجيرات، حتى إذا قربنا من الجبل العظيم تبدت نحونا حجرة كبيرة عالية مصمتة الجدران شيدت بالحجر الأسود.. فما أن وصلنا إليها حتى استدرنا من ناحية الجبل فلما صرنا بينها وبين الجبل عدنا إليها وصار الجبل خلف ظهورنا.

عليها باب ضخم من الخشب القديم مزين بزخارف محفورة، يمتد أمامه سلم من الحجر تصل درجاته إلى أكثر من خمس عشرة درجة.. يصل عرضها مترين تقريباً، لكنه مزين بزخارف منحوتة من اليمين والشمال بصور غريبة أكثرها أفاعٍ وحيات.

وقف السلطان عند أول درجة في السلم فتوقفنا جميعاً، وتقدم الكاهن أمامنا حتى إذا وصل إلى الباب فتحه بمفتاح حديدي كبير، فلما فتح درفتي الباب انحنى السلطان فتبعه الناس.

ثم استقام السلطان والأميران ورقوا السلم فتبعتهم ولحق بنا الحمالون بما معهم حتى إذا وصلنا إلى داخل الحجرة رأيتها وقد انتصب في وسطها صندوق من الحجر مسجى بقطيفة خضراء. وعلى

أطرافها غير بعيد منها ارتصت مساطب حجرية منقوش عليها صور للحيات أيضاً، وقف في كل جهة من الجهتين خمسة رجال يرتدي الواحد منهم أردية مزخرفة بصور حيات وقطط وأشكال هندسية ملونة..

التفتُّ إلى سقف الحجرة العالي فرأيته قد زخرف خشبه بقطع صغيرة من الذهب بالحيات والقطط أيضاً، ولعمري ما سبب الاهتمام بهذه الحيات التي تحيط بحية عظيمة تمتد من عند الباب حتى نهايته ثم تنثني عائدة إلى أن يقف رأسها فوق منتصف الضريح.

وضع الحمالون الطعام على المساطب التي بجانب الضريح بكل تذلل وخشوع ثم انسحبوا مستقبلين الكاهن بوجوههم حتى غادروا الغرفة.. فجعل الكاهن يتمتم بكلمات كثيرة والسلطان شبه راكع أمام الضريح، وبين الفينة والأخرى يشير الكاهن بعصاه إلى الضريح ثم يشير بها إلى السلطان.. حتى إذا انتهى أخذ السلطان يمسح كفيه بالضريح ثم يمرر كفيه بوجهه وبقية جسده وكذلك فعل الأميران وأنا واقف أتفرج.

كانت عينا الكاهن تكادان تلتهمانني.. وكأنه حشي غيظاً مني لأنني لم أشاركهم ما يفعلون، ولعله فقد صبره فأشار لي بعصاه أن أخرج وعيناه تتقدان شرراً.. انصرفت نحو الخارج مغضباً متعجباً مما أرى.

وقفت عند الباب أنظر إلى الرجال الذين ينتظرون إلههم الذي يمارس عبادة لإله آخر من أجداده، وإلى الجبل المهيب .

خرج السلطان وكنت خائفاً أن يكون قد غضب عليّ هو أيضاً كالكاهن لكنه ابتسم لي.. وكذلك الحال كان (نـارون) أما (نارونا) فقد كانت عابسة.

أغلق الباب على النعيم الذي تركناه.. والذهب الذي معه.

وتقدم هذه المرة السلطان وخلفه الكاهن ثم الأميرة والأمير وأنا ثم الناس خلفنا كموكب عائدين إلى القصر.. وأيديهم ترفع أكف الضراعة أن يتقبل الآلهة فيأخذوا ما قدموه من قرابين.

ناديت الأمير بصوت خفيض:

- (نارون)... من سيأكل الطعام الذي تركناه؟.

قال (نارون) بصوت خفيض أيضاً:

- سيأتي خدام الآلهة ويأخذونه.

انفعلت ودون أن أتمالك قلت:

- وهل تصدق ...

ثم سكتُّ.. وكان سكوتي لأمرين: أحدهما أنني كدت أقول أيها الأحمق فأتعدى حدودي، والأمر الثاني التفات الكاهن ونظرته المخيفة بعينيه الجاحظتين الحمراوين نحونا حتى ظننت بأنه يعرف لغتي التي أتكلم بها.

سكت (نـارون).. وبـدت تعابير الغضب على وجهه ولم يجبني بشيء..

واصل الموكب مسير العودة وتفرّق الناس ودخل السلطان والأمراء والحاشية وأنا معهم قصر الحكم.

غادر السلطان إلى جناحه ليرتاح بينما جلست مع الأميرين في قاعة الجلوس في الدور العلوي. وما هي إلا لحظات حتى استأذن الأمير، فاهتبلت الفرصة وسألت (نارونا):

- سيدتي.. هل تسمحين لي بالسؤال، وتجيبينني بكل صراحة؟.

ابتسمت وكأنها تعرف ما سأقول قالت:

- اسأل .. اسأل ما بدا لك يا دكتور.

فقلت:

- هل من المعقول أن تضعوا طعاماً مثل هذا الذي وضعتموه عند الضريح ثم يقفل عليه الباب ولا تتوقعون أن يفسد ويتعفن؟!.

التفتت نحو جهة جناح (نارون) وقالت بلهجة الحذر:

- الحقيقة أنني منذ زمن لا أصدق بهذه الخرافات، وإنني أتوقع أن ما يوضع هناك يؤخذ في المساء من قبل أناس مجهولين.. من هم؟.. لا

أدري. ولا يراد لأحد أن يدري.

أعجبتني موافقتها لي..

قلت:

- إذاً أنت مثلي لا تصدقين هذه الخزعبلات التي تقومون بها.

تغيرت ملامحها وبدا على قسمات وجهها شيء من علامات الغضب وهي تقول:

- أولاً أرجو أن لا تدعوها خزعبلات .. هذه تقاليدنا التي ورثناها من آبائنا .ويجب أن توليها شيئاً من التقدير على الأقل أمامنا.. أنا اعتراضي على تقديم الأطعمة للحجر.. أما بقية الطقوس فليس لدي عليها اعتراض.

قلت:

- يعني هذا بالرغم من أنك متعلمة فإنك تؤمنين بالتمسح بهذه الحجارة وتتوسلين بالقبر؟!.

- نعم إنني أنشد البركة وأدعو مولانا وإلهنا جدنا العظيم.

- سيدتي الأميرة .. ما هي البركة التي تنشدينها من جماد أو من ميت لا يستطيع أن ينفع نفسه الآن؟.

واصلت حدتها اللطيفة في حديثها معي وقالت:

- مهما تقل فأنا أومن بما أفعله، أتعتقد بأنك ستغير من عقيدتي بكلامك السخيف هذا؟.

في تلك اللحظة غضبت من كلامها القاسي الذي لم أعهده منها فانتصرت لنفسي متناسياً من أنا، وقلت:

- للأسف أنك متعلمة وتصنعين مثل ما يصنع الرعاع والجهلة من الناس.

ثم قمت واتجهت إلى غرفتي وتركتها جالسة تتبعني بنظراتها، فلما وصلت إلى الباب قالت:

- لحظة دكتور إبراهيم..

التفت إليها وكنت أتوقع منها كلاماً قاسياً ثم استأنفت.

- أتدري ما الذي حصل هذا اليوم بعدما خرجت أنت من الضريح؟.

وقبل أن أجيب وقفت واقتربت مني قليلاً قالت:

- قال لي الكاهن وأنا أرسل نظرات لم أكن أنتبه لها إلى الطعام: (نارونا) ... إني لاحظت بأنك غير مقتنعة بتقديم هذه القرابين البسيطة بمناسبة شفاء أبيك.

فهززت كتفي.. ففهم الإجابة فنظر في نظرات قاسية وهز رأسه متأسفاً ..

إنني يا دكتور إبراهيم غير مقتنعة بأمور كثيرة تحدث هنا..

انتظرت مني تعليقاً لكنني اكتفيت بالصمت والنظر إليها، انصرفت هي فدخلت أنا غرفتي.



عزمت على الخروج مهما كان الثمن فقد سئمت من المكث بين هذه الجدران السلطانية، فاستيقظت اليوم التالي مبكراً وتناولت فطوري، ثم أخذت معي كاميرتي وجهاز التسجيل الصغير وبعض الأوراق وخرجت متسللاً من الباب الصغير، وقد أفزعني حارسان كانا يقفان خارج الفناء لم أكن أعلم بوجودهما من قبل. فظننت أنهما سيمنعانني من الخروج لكنني تلقيت منهما تحيتين لطيفتين وابتسامتي إجلال واحترام لشخصي.

كان وجهي وكفاي مشوهة بسبب زوال بعض السواد منها من أثر غسلها بالماء والصابون.. وبدت جلدتي الأصلية تتنفس من خلال البقع السوداء، وكان من الأفضل لتمكين اللون تكرار الصبغة لكني لم أرغب في تسليط هذا اللون على جلدي.

نزلت السلم وسرت قليلاً نحو القرية التي استقبلتني برائحتها التي تشبعت بها مناخري حتى ظننت أن العفن في جسدي أنا، انعطفت إلى تجمع بعض الأكواخ البائسة فرأيت عيوناً أشد بؤساً من البيوت التي أذلها القهر والفقر.. جعلت أومىء لهم برأسي ملقياً لهم التحية وهم يتبعونني بأبصارهم وكأني مخلوق من جنس آخر، أو هابط عليهم من كوكب بعيد.

كانوا أكثر لطفاً معي بل إنهم كانوا يؤدون لي تحية الركوع التي أكرهها بشدة.

جعل بعض الأطفال يتبعونني وينظرون في أعطافي، وصغارهم يلمسون كامرتي المتدلية بأيد خائفة متوجسة، كانت بعض الكلمات التي تعلمتها في القصر تعينني في أداء التحية لهذا الحطام من الناس.

وبينما أنا أسير بين بيوتهم أقصد أكواخهم وأنظر إليها وأصور بعض مناشطهم إذ أقبل إليّ من بعيد شاب هزيل يحث الخطا حتى وقف أمامي ثم انحنى وابتسم.. لقد عرفته، إنه الشاب الذي أنقذ اللّه لسانه بي قبل أيام..

سلّم عليّ بحرارة شديدة وزاد في شكري بكلمة thank you التي يعرفها العالم كله لكنه بالغ حتى وددت أن ينصرف ويتركني لحالي، فاستأذنت منه وتركته وسرت في طريقي، لكنه لم يتركني بل سار

معي قليلاً.. وقال بكلمات أعرف معظمها وقد خلطها بشيء من اللغة الإنجليزية المكسرة التي تعجبت من معرفته لها:

– سيدي .. أعرف أنك رجلٌ أبيض أو على الأقل لست من قبائل هذه البلاد.

أموأت رأسي وأنا أسير: أن نعم.

فقال:

– عفواً سيدي ... ما الذي أتى بك إلى هنا؟.

غضبت، وتوقفت ونظرت إليه وقلت:

– وماذا يعنيك ؟.

ابتسم بمكر، وقال:

– سيدي .. إنني عشت في المدينة سنوات ولست بدائيّاً إلى الحد الذي تتصوره.. أستطيع أن أساعدك.

توقفت والتفتُّ يمنة ويسرة في الأطفال الذين يتبعوننا، فصاح فيهم وطردهم..

قلت:

- تساعدني في ماذا يا....؟.

- (لارو) اسمي (لارو)..

- نعم .. (لارو).. تساعدني في ماذا؟.

هز رأسه بخبث وهو يجيل نظره هنا وهناك .وقال:

- أساعدك في التصوير.. أو أي بحث تريده.. أنا أعرف كل شيء في ربوع هذه القبيلة.. وصدقني لا أريد منك شيئاً.. فقط أريد أن أرد إليك معروفك.. وستجدني مفيداً جدّاً أكثر مما تتصور.

استغربت من جرأته وبراعته في دمج الإنجليزية المكسرة بلغته وإن كنت أكرر عليه الاستفهام.

قلت له:

- أخبرني ... هل صحيح أنك سرقت جفراً من أجل أطفالك؟.

ضحك وقال:

- أنا لم أسرق جفراً واحداً يا سيدي فأنا أشبع بناتي لحماً من أغنامهم ولا يستطيعون أن يوقفوني لأني سأفضحهم.. ولكنه قبض عليّ لأنني دائم التذمر لأمر لا أريد التحدث فيه معك الآن .

قلت:

- لكن يعني بأنه لم يثبت عليك إلا سرقة جفر واحد؟!.

قال وهو يضحك:

- نعم ... نعم، ولهم أسبابهم الخاصة في عدم ذكر أكثر من واحد. هم يعرفون وأنا أعرف، الحرامية يعرف بعضهم بعضاً.

قلت:

- لكنهم حكموا عليك بقطع لسانك لأنك تكلمت في الكاهن.

التفت وقال:

- مجرد سبب تافه، ولكن قل يا سيدي: ما رأيك أنت في الكاهن؟. لا أعتقد أن لديكم كهنة متسلطين مثلنا.

قلت:

- الكهنة يا صديقي موجودون في كل مكان وبأشكال وصور مختلفة ولا يشترط أن يكونوا علماء دين لأنك ستجد في كل مجال كهّانه يمارسون قداستهم به، ولكن أجبني على سؤالي : أنت كواحد من القبيلة، ماذا تعتقد أن يكون رأيي فيه؟.

ضيّق في عينيه وقال:

- وتعدني أن لا تخبر أحداً.

قلت:

- أعدك .

- أؤكد أن رأيك فيه .. هو أنه كذّاب ومخادع، وأنا واثق بأنك تسخر منّا كثيراً لولائنا له إلى هذا الحد.

قلت وقد حاولت أن أبدي على ملامحي علامات الاستغراب:

- ولم تقول هذا؟.

فقال وهو يسرّ بكلامه:

- لأن هذا الكاهن يقوم بأعمال يراها المتحضرون كذباً ودجلاً، ولديه حاشية تحرسه وتخدمه وتقوم بسرقة المواشي وتعمل المنكرات تحت حمايته.

قلت:

- يعني أنت لا تؤمن أنه كاذب ولا سارق.

تردد قليلاً وقال:

- في الحقيقة أنا تربيت على احترام وتقدير الكهنة. ولكن ..

ثم سكت.

قلت:

- فما رأيك في القرابين التي يطلبها للضريح؟ ..

تردد.. وبدت على ملامحه الجدية وقال:

- أنا لا أتحدث عن شيء يمس مولانا ولا الآلهة.. هذه أمور دينية لا أعلمها.. وعلى كل فأنا لست متديناً..

سئمت الحديث معه وأردت أن أكمل تجوالي وحدي فمددت يدي لأصافحه مودعاً وقلت:

- أشكرك على مرافقتي هذه المسافة ، تقول: إنك على استعداد مساعدتي في أي وقت .. أليس كذلك؟.

هز رأسه وهو يبتسم ويمد يده مودعاً وقال:

- يسرني ذلك.. وأنتظرك.

فارقته وأنا أفكر في كلامه.. ورأيت فيه مشروعاً مساعداً عند الضرورة.

ولم يطل تجوالي في القرية حيث عدت إلى القصر ، وقد كان تصويري قليلاً جدّاً خشية نفاد بطاريات الكاميرا لعدم وجود كهرباء في القصر لشحنها مرة أخرى رغم وجود بطاريات احتياطية في حقيبتي.



مرّت تسعة أيام كدت أختنق فيها خرجت خلالها مراراً، وكتبت فيها كثيراً، لكني وصلت إلى حد الملل وقد كان السفر متعذراً لعدم مرور سيارات، وقد ذكر لي الأمير أن هناك سيارة تأتي كل خمسة أسابيع بالمؤونة إلى القصر وسوف يستأذن لي الكاهن لتقلّني إلى المدينة لهذا كان ذلك هو أملي فبقيت على نار الانتظار.

وفي صباح اليوم العاشر وبعد أن تناولت فطوري وحدي في غرفتي تمددت على السرير أقرأ بعض ما كتبت وبعد مرور دقائق سمعت صرير الباب العظيم فالتفتُّ إليه من خلال النافذة فرأيت الكاهن يدخل الفناء ثم القصر.. عدت إلى أوراقي وبعد حوالي نصف ساعة رأيته يخرج ثم ظهر لي بعد دقيقة على ربوة قريبة من القصر خلف الحائط ومعه خادم طويل جدّاً معلق في رقبته بوقاً إخاله من القرون الكبيرة، وقفا متجهين نحو القرية، ثم نفخ الخادم البوق بقوة عدة مرات فأقبل الناس يتراكضون إلى أسفل الربوة فلما التف حولهما جمع غفير من الناس خطب فيهم بصوته الجهوري لمدة خمس دقائق، لم أفهم من كلماته شيئاً أعرفه إلا كلمات مثل: السلطان، والأميرة، والآلهة والقبيلة.

ثم علا صوت صفير وتصفيق الناس وزغردتهم .

ثم نزل الكاهن من ربوته.

سمعت كلاماً متسارعاً ونقاشاً حادّاً بين الأمير وأخته في صالة الطعام.. لم أتمالك نفسي ودفعني الفضول فخرجت إليهما.. وتصنعت عدم اهتمامي بالنقاش الجاري بينهما.

كان حضوري بالنسبة لهما مهمّاً حيث لاحظت ذلك من خلال تعابير وجهيهما حينما رأياني وكأنهما كانا ينتظران خروجي من الغرفة ... وقد اغرورقت عينا (نارونا) بالدمع، واربدّ وجه (نارون) بشكل لم أعهد له مثيلاً من قبل.

أومأت برأسي لهما بالتحية وتوجهت إلى الأريكة لأجلس، فتابعاني بنظريهما، متعجبين من عدم اهتمامي ظناً منهما أنني أعرف ما يدور بينهما.

ابتسمت لهما.. وقلت:

- صباح الخير يا صديقيّ.

أشاحت (نارونا) بوجهها وقالت:

- وكيف يأتي هذا الصباح بالخير و....

ثم خنقتها العبرة.

مطت شفتي مستفهماً من (نارون).. فجاء وجلس بجانبي وقال:

- مصيبة.. مصيبة حلت بنا هذا اليوم.

وجب قلبي وقلت:

- مصيبة!.. ماذا تقصد؟.

قال (نارون) وهو يشير نحو الخارج:

- ألم تسمع الكاهن وهو يعلن في الشعب قبل قليل؟.

قلت:

- سمعته يتكلم قبل قليل لكنني لم أفهم ما كان يقوله.

قال وقد طأطأ رأسه:

- إنه يعلن قبول أبي بتقديم أختي (نارونا) قرباناً لهذا العام شكراً لسلامته.

صعقت من هذا الخبر، قربان؟! هذا يعني بأنها ستذبح كما تذبح القرابين، وهذا أيضاً ليس غريباً على شعب مثل هذا الشعب البدائي.

قلت وبسرعة:

- قربان.. قربان.. ماذا تعني بقربان؟..

زفر زفرة حرى وقال:

- نعم يا صديقي.. نحن وللأسف نقدم كل عام أجمل فتيات القبيلة قرباناً للآلهة.

قلت:

- تذبحونهن لهم؟.

قال:

- لا بل توضع الفتاة في المعبد وتترك إلى الليل ويأتي خدم الآلهة تأخذها إلى مكان مقدس ثم تصير هي مع الآلهة ترانا وتحرسنا من الأرواح الشريرة.

غضبت وقلت:

- وهل تصدقون هذا الكلام؟.

التفت إلى أخته بوجه ملؤه الحب والحنان وقال:

- حقيقة نحن تربينا على هذه التقاليد.. وكنت أصدق بها.. لكن هذا اليوم بدأت أراجع نفسي.. كيف يمكن أن يكون هذا؟ أنا لم أجده في كل ما تعلمته؟.

وجهت سؤالي إلى (نارونا):

- وأنت يا سيدتي ما رأيك؟.

التفتت إليّ وكأنها لا تريد أن أرى وجهها الباكي وقالت والحزن يكبس أنفاسها بعبراته:

- هذه خرافة.. كذب.. أنا لا أصدق.

ثم خنقتها العبرات مرة أخرى فتوجهت إلى أريكة بعيدة فرمت بنفسها عليها وأخذت تجهش بالبكاء.

قلت لـ(نارون):

- هل سألت نفسك ذات مرة هذا السؤال حين كانت بنات الشعب يقدمن قرابين من قبل؟.

تردد في الإجابة..

ضحكت من داخلي، لقد أصبح يشكك في هذه التقاليد الآن لكن حينما كانت الضحايا من الشعب فالتقاليد صحيحة ولا يتطرقها أي شك.

فسألت مرة أخرى:

- ولماذا هذه المرة بنت السلطان؟ لماذا لم تكن كالعادة واحدة من بنات الشعب.. أليس لكم حصانة كبقية الحكام؟.

هزّ رأسه وعلى وجهه ظلمة القهر وقال:

- لقد جاء الكاهن إلى أبي اليوم وقال: في المرة الأولى حين قدمنا القرابين السابقة من طعام وذهب كانت الآلهة قد أمرتني وأنا في المنام أن أسوق بنت السلطان قرباناً بمناسبة سلامة أبيها.. فحزنت كثيراً وترددت في ذلك وقلت لعلها ترضى بما قدمناه، فأخذت الذهب ولم تقبل الطعام حتى فسد مكانه فعلمت أن الأرواح خدم الآلهة غضبت وستؤذينا. لكنّه وعد أبي بأن غيبة (نارونا) لن تطول وسوف يصلي كثيراً لتتركها الآلهة تعود قريباً، وربما يرون طاعتنا فيباركونها ويتركونها.

أسقط في يديّ وأنا أرى ذلك الملاك الأسمر يقدم للشياطين أو إخوانهم على طبق من ذهب. ليس من المعقول أن يقدم إنسان قرباناً لأحد.. هذه خرافات عفا عليها الزمن منذ أن فهم الناس الدين السماوي الذي يحفظ لكل حقه في الحياة والعيش بكرامة وأمان مثله مثل أي إنسان يعيش معه على هذا الكوكب مهما علا شأنه.

أنا أعرف أن الجهل هو من يسلط الأرواح المزعومة على العقول أو الأرواح البشرية، وأعرف أن الجهل هو من يجعل الأموات المساكين الذين يرقدون تحت أطباق الثرى ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً مقصداً للسذج وملاذاً نفسانياً لهم بعيداً عن الله الذي يملك كل شيء.

هو الجهل وحده الذي سلط مردة الشياطين وشرار الكهنة في استغلال عقول الناس.

ومع هذا فأنا أومن أيضاً بأن الجهل ليس معناه الجهل بالتقنيات وعلوم الدنيا كلها ولكن الجهل الحقيقي هو الجهل بالمعتقد الصحيح الذي يحرر النفس من العبودية الأرضية أو الشيطانية، فكم من عالم عظيم من علماء الطبيعة يذل لمدفونات أو أسيجة معدنية أو حجرية أو إسمنتية، يتقرب بها إلى من يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة البهماء.

وكم من شعوب تعتبر من أذكى شعوب العالم لكنها ترغم أنوفها لحجارة جامدة وأصنام هامدة لا تضر ولا تنفع.. ليس لشيء إلا لأنهم قالوا: إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون.

جعلت أحدق النظر في المسكينة وهي تتظاهر بالصبر والتحمل لكنها حينما وقعت عيناها على عيني انهارت بالبكاء ثم ذهبت راكضة إلى حجرتها.

نظر إليّ الأمير.. وقد قرأت في عينيه حزناً عظيماً لا يحتمل.. لكنني أنا كنت مع حزني شديد الغضب من هذا الوضع الذي لا يستساغ.

قلت له:

- سيدي الأمير.. أعود وأقول سيدي الأمير (نارون) .. أليس هناك من مخرج من هذه الأزمة؟.. ليس من المعقول أن تسلم أختك هكذا.

ردّ بصوت مخنوق:

- وماذا تريدني أن أفعل؟ صعب علي يا إبراهيم.. صعب جدّاً أن أعارض إرادة الآلهة.. ومن المستحيل أن أعارض أمر السلطان.

قلت وبنبرة أظهرت غضبي له:

- هل أفهم من هذا أنك ستقدم أختك هكذا؟ .

شبك بين أصابع كفيه بين ركبتيه وأومأ رأسه بالإيجاب وهو مطأطئ رأسه.

تبادر إلى رأسي فكرة.. فقلت له:

- فما رأيك أن أقوم أنا وإياك بمراقبة المكان ثم نتبع من يسمون برسل الآلهة لنعرف كيف وأين سيأخذونها.

نظر إليّ فزعاً وقال:

- هه.. إنك تمزح.. ماذا تقول؟.. هل جننت؟.

قلت وقد ضيقت في عينيّ مختصراً كلماته وخوفه:

- ولماذا جننت يا (نارون)؟.. أليست (نارونا) هي التي ستقدمونها للمجهول؟.. ألا تستحق أختك الأميرة منك أن تعرف ماذا سيصنع بها؟.

ارتفع صوته وهو يقول:

- أظنك لا تفهم ماذا تتحدث عنه.. إنك تتحدث عن أمور غيبية خطيرة .. أرواح وآلهة.. ومخاطر لا يتحمل تبعتها إلا مجنون.. أكيد أنت تريد أن يحل بنا وبشعبنا سخط وغضب.. إننا نقدم أرواحنا من أجل بقاء شعبنا حيّاً سالماً من الفيضانات والقحط وسطو الحيات والأفاعي التي ربما نكون نحن عائلة السلطان أول ضحاياها..

قلت له وبلغة حازمة:

- (نارون).. اسمع.. إن الكلام الذي تقوله غير صحيح.. هذه المعتقدات أوهام .. إنها أوهام صدقني ..

لكنه قاطعني وهو في شدة الغضب:

- الأوهام في رأسك أنت .. أنت لا تفهم شيئاً عن حياتنا.

ثم التفت نحو الجهة الأخرى وكأنه يأمرني بعدم مواصلة الحديث.

إلا أنني قلت:

- إن كان كذلك فمتى سيكون؟.

قال بصوت مخنوق وهو ينظر إليها:

- غداً.. غداً قبل الغروب، في عرس كبير سيحضره معظم أهل القرية. وسيقدمون أفضل ما عندهم من حلي وزينة لتزيين العروس..

برمت بنقاش ذلك الأحمق الذي سيقدم أخته لخرافة، فآثرت الاستسلام ولكن قلت بيأس:

- أنا لست مقتنعاً بما يدور، لذا فأنا أعتذر عن حضور مثل هذه الجريمة.

نظر إليّ بحنق وقال:

- ومن قدم لك الدعوة حتى تحضر؟.

ولما همّ بالقيام قال:

- أعرف بأنك مثلي لا تحتمل رؤية (نارونا) وهي تقدم قرباناً للمجهول..هذا يؤلمني كثيراً.. لكن الذي يعزيني أن الكاهن وعد أبي بأن يسأل الآلهة منذ اليوم بتبريكها وتركها.. فإن لم تفعل فإنها ستبقى واحدة من خدام الآلهة لعام أو عامين ثم تعود.

قال جملته الأخيرة ليبدي لي شيئاً من المجاملة ثم انصرف مع أخته التي تسير بتثاقل ملحوظ.



٥

دبت في القصر حركة غير معهودة للخدم والطباخين الذين صاروا يخرجون بين الغرف وفي البهو.

كانت الاستعدادات على أوجها لتجهيز العروس الضحية المقدسة، لم أر عروساً أو أهل عروسٍ أكثر عبوساً وحزناً من (نارونا) وأهلها، حتى السلطان الذي لا أراه إلا نادراً رأيته ذلك اليوم وقد حياني بإشارة منه وهو متجه نحو ابنته في جناحها.. كان حزيناً مكفهر الوجه.

اسودّت الدنيا في وجهي، ورأيتني أعيش في بيئة شديدة الخطورة حتى على نفسي، فرجل ذو سلطان يضحي بابنته من أجل خرافة لا يستبعد أن يضحي بضيفه بإشارة من الكاهن الذي يحبني كثيراً.

كانت شفقتي على تلك الأميرة المسكينة أعظم من خوفي على نفسي، لذا اشتغلت بالتفكير في إنقاذها بأي ثمن. وفيما أنا أفكر ضاقت نفسي فخرجت من ذلك الجو الكئيب واتجهت إلى البلدة بثيابي التي جئتهم بها وجعلت أسير في البلدة وأعين الناس تتابعني خطوة خطوة وحركة حركة بينما انطلق الأطفال كالعادة خلفي، سرحت حتى وازيت كوخ

الشاب (لارو) الشاب الذي شفعت له واستعد لتقديم المساعدة.. لم يكلفني البحث عنه وقتاً فقد أقبل إليّ متبسماً مرحباً.. سعدت بمقابلته بهذه السهولة، فقلت له:

- هل بإمكانك أن تصرف هؤلاء الصبية لنتحدث.

طرد الصبية القلائل الذين كانوا يتبعونني فهربوا يتسابقون إلى حيث أتوا. ثم دعاني لدخول كوخه لكنني آثرت الجلوس على حجر كالكرسي عند بابه وقلت له بالإنجليزية:

- هل تفهم الإنجليزية جيداً؟.

قال بلغة مكسرة:

- أفهم إلى حد ما لكنني لا أتحدث كثيراً بها.

وابتسم معتذراً .

قلت محاولاً تبسيط لغتي ومساعداً له على فهمي بالإشارة:

- لا بأس.. أنت تعرف أن ابنة السلطان سوف تزف غداً.. أليس كذلك؟.

هز رأسه وابتسم.. وقد بدت عليه الفرحة..

قلت:

- يبدو أنك سعيد بذلك أليس كذلك؟.

أومأ رأسه بالإيجاب ثم قال:

- هذه هي المرة الأولى في تاريخ شعبنا تقدم بنت السلطان كقربان، أنا لا أصدق ما أسمع.. فهم دائماً يقدمون بناتنا وأموالنا بينما هم لا يقدمون شيئاً.

ثم زفر زفرة كادت تفت كبده ثم استأنف:

- أتدري لماذا هربت إلى المدينة قبل سنوات؟.

وأكمل حديثه المؤثر قائلاً بعدما هززت رأسي بالنفي:

- قبل خمس سنوات قدموا أختي الوحيدة كأجمل بنات الحي قرباناً لآلهتهم.. حزنت أشد الحزن عليها فهي أختي الوحيدة وكنت أحبها حباً شديداً. حينها كفرت بآلهتهم ولعنت كهانهم وكرهت كل ذرة من تراب هذه الأرض.. وحينما عدت لم أسكت وكنت أتذمر وأحذر وهذا هو سبب سجني الحقيقي والحكم علي الذي قلت لك سابقاً بأنني سأحدثك به لاحقاً. ربما يروقك كلامي وربما تبلغ صديقك ابن السلطان، أعلم أن أكثر أصدقاء الأمراء جواسيس ونمامون لهم، كثمن لصحبتهم، لكن متحضراً مثلك لا أظنه يفعل ذلك، أنا فرح جدّاً بأن يتحطم قلب السلطان وقلب (نارون) على أخته كما تحطم قلبي وقلب أمي التي ماتت حزناً عليها.

ولكن أتدري؟ أنا لا أصدق بأنهم سيقدمون (نارونا) قرباناً وما هي إلا لعبة يخادعوننا بها ليفهمونا أنهم يضحون ببناتهم مثلنا، هي لعبة يا صاحبي يلعبها الزعماء ظنّاً منهم أن شعوبهم لا تدرك تلك الألاعيب.

قلت:

- وهل تحقد على (نارونا) وأخيها (نارون)؟.

رد قائلاً:

- (نـارون) هو نسخة مكررة من السلاطين المتقدسين.ونحن نخشى من الشباب أكثر من خشيتنا من الكبار الذين يقدرون الحياة أكثر منهم وإن كانوا يخدمون هدفاً واحداً يخصهم هم أكثر، فالشباب تربوا على أن كل ما هو في القبيلة يجب أن يكون تحت تصرفهم ويجب أن يخضع لسلطانهم ورغباتهم حتى الأفكار والعواطف، وهذا أخشى ما يخشاه عقلاء القبيلة أن تسوء الحالة في عصرهم فتكثر القلاقل والمشكلات، وتطلق أيدي الزبانية لقمع الشعب، ونحن شعب قبلي إذا انفلت الزمام فلن يرده شيء.

أما (نارونا) فلم نر خيرها ولا شرها، وصدقني فأنا هذه اللحظة أشفق على (نارونا) كثيراً لأنها مسكينة ضعيفة ستذهب إلى المجهول كأختي.

قلت له:

- ومن هو المجهول؟.

- لا أدري.. لكن لا أصدق بأن هناك آلهة ستجعلها من حاشيتها المقدسة.

التفتُ يميناً وشمالاً ثم قلت بصوت خفيض:

- هل تساعدني على كشف ذلك المجهول؟.

اتسعت عيناه وتغيرت ملامح وجهه وقال:

- ماذا؟... تريد أن تكشف المجهول؟.

هززت رأسي وقلت:

- نعم.. أريد أن أكشف ذلك المجهول الذي يخطف بناتكم باسم الآلهة، ولن أستطيع ذلك إلا بمساعدة رجل مثلك لا يصدق بخرافة هذا المجهول.

بدت عليه رعدة خوف غريبة فقلت له:

- ما بك؟ كأنك خائف!. هل أنت خائف فعلاً؟.

ضحك ضحكة باهتة .. وقال:

- أتعلم!.. أنا أشعر فعلاً بخوف غريب من الداخل.. لا أدري ما هو السبب أنا لا أومن بهذه الآلهة وبهذه الأرواح فكيف أخاف.

قلت:

- لا تخف فهذا شعور مترسخ في عقلك الباطن غرس فيه منذ أن كنت طفلاً فلما كبرت وعرفت الحقيقة بقيت المعرفة المناقضة في عقلك الواعي ولم تستطع الوصول إلى مستودع اللاواعي لتمحوها. فقط توكّل على الله الخالق في البداية وستشعر بأن تلك الخزعبلات قد تهدمت وزالت آثارها النفسية من مخزون مشاعرك المدفونة.

هز رأسه وكأنه لم يفهم شيئاً مما قلت، وهو معذور فقد أوردت عبارات لم يسمع عنها طوال حياته حتى في المدينة التي تلقى فيها كلماته البسيطة، لكنه أظهر على قسمات وجهه العزم على مساعدتي حيث قال:

- هذه فرصة جيدة لأردّ لك الجميل، وفرصة أخرى لأكشف بعض الأسرار التي كنت أتمنى معرفتها من قبل. حتى ولو تعرضت للأذى لا يهم ما دمت ستشاركني هذه المخاطرة.

هززت كتفه بكفي مؤيداً حماسه شاكراً تأييده.. وقلت:

- إذاً غداً مساءً سنبدأ العمل.. بعدما يزفون عروسهم ويعودون إلى

أوكارهم. نراقب المعبد لنكتشف من سيأتي ليأخذ (نارونا) فنتبعه إلى المكان الذي يأخذها إليه... اتفقنا؟.

قال (لارو):

- لكنه يحرم على الناس أن يقتربوا من المعبد بعد غروب الشمس وإلا سوف يتعرضون للأذى.

نظرت إليه مستنكراً وقلت:

- ألم نتفق ضمناً بأن لا نخضع لقوانينهم إذا كنا سنكشف خرافاتهم..

هز رأسه وقال:

- آسف .. بلى.. بلى.. غداً موعدنا..

اتفقت معه على مكان الالتقاء ووقته مساء رغم تخوفنا من ضوء القمر الذي سيبقى بعض الوقت شاهداً من السماء .

❊ ❊ ❊

انشغل (نارون) بأخته بينما انشغلت أنا بتجهيز معداتي من كاميرا فيديو صغيرة وناظور ليلي، ومسدس ومصباح صغير..

وفي عصر اليوم المشهود .. ارتفعت أهازيج الشعب وقرعت طبولهم في ساحة القرية.. فنظرت من النافذة فإذا بالناس يتوافدون زرافات وهم يرقصون رقصاتهم الغريبة.. علمت بأن وقت الزفاف قد أزف فخرجت من غرفتي على عجل لعلي أختلس نظرة ربما تكون نظرة وداع للأميرة..

وبالفعل فقد وجدتها قد زينت بأردية مزركشة مليئة بالصور التي رأيتها في المعبد وفي ظهر ردائها نقشت صورة حية كبيرة رأسها بين كتفيها وذيلها بين قدميها، لقد كنت أكره الحيات والأفاعي وزاد كرهي لها تلك الأيام.. وكانت تضع (نارونا) على رأسها تاجاً صغيراً من الذهب مرصعاً ببعض الألماس، حيتني بابتسامة ملؤها الحزن والكرب كادت تشق بها قلبي. فخنقتني العبرة التي طالما أعانيها في المواقف الحزينة والتي غالباً ما تمنعني من الحديث وإلا انفجرت باكياً.

توجهت (نارونا) إلى السلم حيث استقبلها أبوها الذي وضع بالإضافة إلى زينته التاج على رأسه ومعه أخوها الذي وضع على رأسه التاج المصنوع من الجلد مزيناً بالذهب وبعض الجواهر.

لم يلتفتا إليّ أبداً حتى حسبتني قطعة من الأثاث.. لكنني قرأت الحزن على وجهيهما.

عدت إلى غرفتي لأراقب المشهد من النافذة ونيران الغضب تضطرم في فؤادي.

وأمام الباب رأيت العروس تحمل على هودج من الخشب الجميل ومعلق على أعواده أنواع الذهب والألماس.

وفي موكب مهيب خرجوا بها من الباب الرئيس ولا أعلم كيف تمت مسيرتهم. فقد أغلقت النافذة حتى لا أنظر أكثر إلى مسيرة مأساة أو جريمة تقدم فيها إنسانة بريئة إلى خرافة المعتقدات.

انتظرت ساعة وكأنني أقف وأجلس على جمر، وبعد أن مضى على خروجهم أكثر من ساعة خرجت من القصر مخفياً مسدسي وحاملاً منظاري وكاميرتي على عاتقي، فلما فارقت فناء القصر انعطفت يميناً حيث تقع شجرة ضخمة تبعد عن القصر بأكثر من كيلو متر نحو الشرق حيث حدد موقعها (لارو) للالتقاء.

وجدت (لارو) قد سبقني إلى مكان الموعد، إذ رأيته من بعيد واقفاً ينتظرني وفي يده رمح طويل يتكئ عليه، فاستقبلني وعلى وجهه علامات الإثارة ، فلما رآني وحياني أشار لي بالتوجه فوراً نحو الجنوب.

انطلقنا نسير بهدوء حتى لا نلفت انتباه أو شك أحد، لكن كثرة تلفته أقلقتني، وصلنا إلى غابة قريبة لم تكن أشجارها كثيفة لكن أفاعيها كما يقول (لارو) مخيفة.

جلسنا تحت إحدى تلك الأشجار والشمس الحزينة تودع الأفق ونحن نسمع نغمات وأهازيج شعب يسلم أميرته الطيبة إلى براثن المجهول.

ومرت ساعات قليلة ثقيلة زحف علينا الظلام بعدها بحنادسه سريعاً.

فما قربت الساعة من العاشرة توجهنا إلى المعبد واقتربنا منه كثيراً حتى أصبحنا على بعد ما يقرب من خمسمائة متر منه، ثم اختبأنا خلف أجمة صغيرة ونحن نراقبه في ظلمة لا يشتتها إلا ضياء النجوم البعيدة.

مكثنا ما يقرب من الساعة لكننا لم نر شيئاً غريباً إلا وهج نور من نوافذ أعلى جدران المعبد يضيء لعله ترك ليضيء للأميرة ويؤنس وحشتها.

اقتربنا أكثر وقد التفعنا على المعبد من بعيد .. لم نر ولم نسمع شيئاً.. سئمنا من الانتظار فأمرت (لارو) أن يبقى مكانه وانطلقت أتسلل إلى المعبد وقد أحسست بوجيب قلبي وتطارد أنفاسي بصورة لم أعهدها من قبل، فلما وصلت أسفل المعبد توقفت قليلاً حتى أسترد أنفاسي ثم ناديت بصوت كالوحوحة من تحت الجدار الذي تعلوه النوافذ:

- (نارونا) .. (نارونا)..

أجابتني بصوت خائف مرتعش وهي تبكي:

- إبراهيم.. إبراهيم ... أرجوك أخرجني من هنا أنا خائفة جدّاً، أنا مرعوبة . أكاد أموت من الخوف.

تسللت إلى الباب وحاولت فتحه لكنه كان مغلقاً بإحكام، حاولت أن أفتحه بالقوة لكنه استعصى عليّ وهي تقول:

- أرجوك حاول حاول..

وأنا أقول بصوت خفيض:

- حسناً.. لا تخافي سوف أفعل.

وبينما أنا كذلك إذ ارتفع صوت بوق خلفي من عرض الجبل كاد يخلع قلبي من الخوف.. خفت وارتعدت فرائصي.. لم ألتفت خلفي ولكنني أطلقت قدمي للريح نحو الغابة، وحينذاك لم أفكر في ما الذي سيفعله (لارو) لأني ذهلت عنه.

لم أتوقف حتى كدت أسقط من التعب، فلما أعياني التعب توقفت وجلست على الأرض ألهث من شدة الجهد والخوف. ثم زحفت إلى شجرة ضخمة قريبة مني فاستندت إلى جذعها.

لقد شعرت بخوف بل هلع لم أجربه من قبل ولم أكن حينها أظن بأنه يصيب أحداً من الناس قبلي أو بعدي.

جعلت أحدّ بصري في الظلام نحو الجهة التي أقبلت منها لعلي أرى (لارو) لأستأنس به، وكنت أتعجب من نفسي، لا أدري مم كنت أخاف؟. هل كنت أخاف من الجن أم من الأرواح الشريرة أم من الآلهة؟.. كنت مشوش الذهن.. ما كنت أظنه خرافة أخافني.. فعلاً أفزعتني الصورة الغريبة التي تمثلت في ذهني.

المشكلة الآن أن الظلام دامس، لكن كنت قد سمعت هسيساً أو خشيشاً فأخذت أضع المنظار الليلي على عيني وكل شيء مخيف تصور أمامي واقترب نحوي.

حاولت التقاط أنفاسي التي تتتابع وكأنها لا تريد أن تهدأ.. وبينما أنا أمر ببصري خلال منظاري الليلي فإذا بـ(لارو) يهرول بين الأشجار.. وينظر إلى كل اتجاه وفي يده الكاميرا الخاصة بي فتذكرتها وعرفت بأنها قد وقعت مني ولكن لشدة الخوف فقدت الإحساس بوقوعها.. وفي يده الأخرى رمحه الطويل، فاطمأننت قليلاً بعودته سالماً غير مقبوض عليه. وجعلت أصفر له بفمي بهدوء ثم أشرت بالمصباح الصغير إشارة واحدة.. فانطلق نحوي.

وصل إليّ يلهث.. ثم جلس بجانبي دون أن يتكلم ليسترد أنفاسه.

أما أنا فقد عاد تنفسي إلى طبيعته تدريجيّاً، وهدأ خفقان قلبي إلى حدٍّ كبير. وما أن هدأ هو حتى التفت إليّ فرأيت بريق أسنانه وهو

يبتسم وقال معاتباً:

- لماذا هربت وتركتني؟.

قلت له:

- لا أدري لقد شعرت بخوف غريب من الصوت.. فانطلقت قدماي بغير إرادتي.

رأيت بياض عينيه وهو يفتحهما بشدة وقال:

- لقد جاء اثنان من الرجال إلى باب المعبد وسمعتهما يتحدثان.. إن لهجتهما تختلف عن لهجتنا..سمعتهما يتهامسان ويقولان: يجب أن نأخذها قبل منتصف الليل. ثم جلسا عند الباب وكأنهما ينتظران أحداً سيلحق بهما.

لا أدري ... لكن شجاعة اقتحمت قلبي فجأة .. وتجمعت طاقة هائلة في كل أركان جسدي ظننتها أنها انطلقت من قلب (نارونا) وهي تستغيث بالله ثم بي.. فقلت له:

- وما رأيك؟ يجب أن ننقذها الآن إنها تتعرض إلى جريمة اختطاف. وهذه هي مهمتنا.

- هزّ رأسه الأسود بحماس وقال:

- أنا لم آت معك إلا من أجل هذا لكنني أخشى أن تنطلق قدماك مرة أخرى بغير إرادتك، وتورطني أنا وحدي.

فرددت عليه وكلي عزم أكيد:

- أبداً.. يجب أن ننقذها فوراً.

ثم تحسست مسدسي الذي ما زال مختبئاً تحت إبطي.. ثم توجهنا مرة أخرى إلى المعبد بخطاً حثيثة.

أصبح المعبد قاب قوسين أو أدنى فاختبأنا خلف شجيرات حوله وتمددنا على الأرض حيث نرى الباب أمامنا، كان السكون يخيم على المكان، وخيال رجلين جالسين قرب الباب، وما هي إلا دقائق قليلة حتى سمعنا أصواتاً قربت من باب المعبد، قمت بتشغيل الكاميرا على التصوير الليلي ثم نظرت من خلال عدستها وقرّبت الصورة من الباب كثيراً، جاء ستة رجال سود لينضموا إلى الرجلين كانوا جميعاً يغطون وجوههم بأقنعة صنعت من جلود الفهود، وقد أسدلوا على ظهورهم أيضاً فروات جلود أظنها من جلد الماعز تتدلى إلى ركبهم، مكشوفي الصدور.. ليس عليهم من اللباس إلا أزر من القماش الثقيل، يحمل اثنان منهم مشاعل صغيرة جدّاً كأنها شموع بينما يحمل اثنان نعشاً عليه قفص من أعواد.. وكانوا يتلفتون بحذر شديد.

فتح أحدهم الباب.. فسمعت صرخة (نارونا) التي كادت تشق قلبي شفقة عليها.. فصرخ أكثرهم عليها ليخرسوها، ثم سمعت غمغمة أدركت بأنهم كمموا فمها.

وما هي إلا لحظات حتى أخرجوها في قفص يحمله أربعة منهم ويسير أصحاب المشاعل أمامهم واثنان من خلفهم يحملان رمحيهما الطويلين على كتفيهما..

استمررت في التصوير حتى ساروا حوالي مائتي متر، فأغلقت الكاميرا وربطتها في وسطي ثم نظرت إلى (لارو) الذي هالني بياض عينيه المحدقتين، وسألته عن جاهزيته للحاق بهم فأشار لي بالإيجاب، سرنا خلفهم مطأطئي الرأسين، نحث السير لعلنا نتبعهم إلى حيث يوصلونها، لكن حينما أصبحنا قريبين منهم توقف أحد الحارسين والتفت نحونا ثم أمرهم بالوقوف فتوقفوا جميعاً، التفت الحارس الآخر نحو جهتنا فانبطحنا، دعا الحارس صاحبي المشاعل فاقتربا منه، وفجأة أضاء أحدهم مصباحاً وجعل يجول به ناحيتنا فلم يرنا، لكن يبدو أنه واثق من وجود من يتبعهم فوقفوا طويلاً يتهامسون، فهمست في أذن (لارو) قائلاً:

- قل لهم: إن كنتم تريدون الحياة فاتركوا الفتاة وغادروا بسلام.

رفع صوته بهذه الكلمات ولكن قبل أن يكملها أقبل الحارسان إلينا رافعين سهميهما وانطلق الأربعة إلى الأمام بالقفص.. كنت قد شهرت مسدسي فلما رأيت الحارس مقبلاً إليّ رافعاً سهمه نحوي أطلقت الرصاصة الأولى عليه فسقط على الأرض ثم أطلقت الثانية على الآخر فلحقه، تركناهما مضرجين في دمائهما مع أنين مكتوم، ولحقنا بحاملي القفص والمشاعل، لكنهم اختفوا وأطفئت المشاعل، جعلت أجيل ضوء المصباح في كل اتجاه لكن الأشجار أخفت أثرهم.. اتجهنا مسرعين نحو سفح الجبل ونحن نصيخ السمع لعلنا نسمع قرع أقدامهم وبعد دقائق سمعنا صوت (نارونا) خلفنا تنادينا:

- تعالوا.. أنا هنا .. أنا هنا..

عدنا مسرعين إلى الصوت فإذا بقفص الأميرة مضطجعاً على جنبه والأميرة مربوطة فيه وقد سقط كمام فمها إلى حلقها.

حطمنا القفص بسرعة وأخرجناها منه، فلما انتصبت مزقت الرداء المزركش الذي كان منسدلاً على ظهرها، ثم أشار (لارو) لنا بسرعة الهرب إلى الجهة الشرقية، انطلقنا مسرعين تاركين وراءنا الذهب والمجوهرات، وكأن لا قيمة لها في وقت أصبحت فيه حياتنا أغلى من كل شيء.

استمررنا في الركض لمدة تزيد على نصف ساعة انعطفنا فيها إلى جهة الجنوب، وقد تعجبت من تلك اللياقة التي كانت تتمتع بها الفتاة لكن الخوف دائماً يقضي على العجب.

لم نسمع أحداً يركض خلفنا ولم تكن هناك أصوات تخرق حجب صمت الليل البهيم إلا صفير البوم والخنافس.. وقفنا نلتقط الأنفاس.

وفي لحظة صمت انتبهت إلى داخلي فعجبت لنفسي إذ لم أشعر بالخوف كالمرة الأولى رغم أنني في هذه المرة في خطر أشد.. لكن الذي لا يعرفه الكثير أن التعود على المخاطر يقضي على الخوف ويكسب الجبان الشجاعة والإقدام، كما أن عظم الهدف يصغّر في العين مقدار الخطر.

نظرت إلى (نارونا) وأمسكت بعضدها وكأنني أريد أن أتحقق من أنها موجودة. التفتت إليّ وهي تلهث.. قلت لها:

- الحمد لله على السلامة.

قالت بصوت يلهث أيضاً:

- ما زلنا في خطر....

نظرت إلى (لارو) وقلت له:

- والآن ماذا نصنع؟ ..

قال:

- توجها إلى القصر وأنا سأتوجه إلى داري وكأن شيئاً لم يكن.

قلت:

- هذا غير معقول.. فـ(نارونا) تعتبر الآن ناشزاً على الآلهة.. وأنا متعدٍّ وقاتل لخدام الآلهة .. دعونا الآن نذهب إلى مكان أكثر أماناً لعدة أيام حتى نتمكن من فضح الكاهن وإيضاح الحقيقة لأننا لو جئناهم الآن فلن يصدقونا وسيعتبرون ما قمنا به تعدياً سافراً على الآلهة.

راقت لـ(لارو) الفكرة وقال:

- لا بأس.. سنذهب الآن إلى غار في الصخور السوداء، كنت أستخدمه للإختباء وهناك سنخبئ الأميرة حتى نرى رأينا.

اتجه (لارو) بنا نحو الغار حيث سرنا حثيثاً حوالي ساعة حتى وصلنا إلى صخور متراكبة في عرضها غار صغير لا يصل إليه الإنسان إلا من فوقه وبصعوبة .. ارتقينا تلك الصخور الضخمة ثم نزلنا من خلال بعضها وكدنا نقع منها لعدم وجود طريق سهل التسلق، حتى وصلنا إلى صدع كبير تحته هوة خطيرة جدّاً، فقفز (لارو) بخفة عجيبة إلى الجهة الأخرى وتمسك بيديه بصخرة كبيرة ثم تخلل بين

صخرتين، فغاب ثواني ثم جاء بجذع شجرة ومده إلينا ثم أمسك بطرفه يثبته، وقال:

- هيا سيرا عليه.

عبرت (نارونا) بكل رشاقة وكنت خائفاً عليها لكنها تجاوزت الجسر بأمان وبقي الخوف عليّ أنا، لكن الله سلم وتجاوزت تلك الهوة بسلام فوجدت أمام الغار فسحة مستورة من كل اتجاه إلا السماء، تمتد مساحتها إلى غار شديد الظلمة لكن مصباحي الصغير بددها، دخلت الكهف ففوجئت بوجود بعض الفرش من الجلد وبعض الأواني الفخارية الصغيرة.

توغلت قليلاً فيه فسمعت خرير ماء في أقصاه، فقلت لـ(لارو):

- إني أسمع خريراً للماء أليس كذلك؟.

قال:

- نعم إنه نبع يمر بنهاية الكهف ويتخلل الصخور منحدراً إلى الأسفل وباستطاعتنا أن نأخذ منه.

فقلت له متوسلاً:

- أرجوك إن حنجرتي تكاد تنقطع من الظمأ أعطنا منه ما يروينا.

أخذ إناء من تلك الآنية فأمرته أن يغسله بقدر ما يستطيع، فلماء جاء به شربت (نارونا) منه حتى رويت ثم شربت أنا حتى شعرت بالري يضايق جلدة بطني، وما وجدت ماء بارداً أعذب منه من قبل.

قربت الساعة من الثالثة صباحاً .. فاتفقنا على أن تبقى الأميرة و(لارو) في المكان وأعود أنا إلى القصر حتى لا يفتقدني أهله وهناك أدبر الأمر وأحضر لهما ما أستطيع من الطعام رغم تأكيد (لارو) لي بأنه يستطيع أن يتدبر أمر الطعام من خلال الصيد الوفير في المنطقة المحيطة .

ترددت كثيراً في تركها معه لكنها في غفلة منه همست في أذني أنها غير خائفة من البقاء معه.

أبقيت الكاميرا والمسدس عندهما وأخذت المصباح والمنظار وعصاً غليضة كنت قد اقتطعتها من شجرة، هبط معي (لارو) إلى أسفل الجبل وأشار إلى نجم ساطع في السماء وأمرني بالاتجاه نحوه.

توكلت على الله وانطلقت مسرعاً لعلني أصل قبل طلوع الفجر، وبالفعل كان النجم دليلي، كنت أركض مرة وأهرول أخرى، أسقط تارة وأكبو أخرى.. حتى إذا انفلق الفجر في الأفق وقد وصلت إلى الباب وأنا في غاية الإجهاد فاستقبلني الحراس بحرابهم فلما عرفوني قدموا تحياتهم بالركوع ثم فتحوا الباب الصغير لي.

دخلت القصر خائفاً وجلاً حتى إذا ولجت غرفتي قذفت بجسمي المنهك على الفراش وأنا لا أشعر بعضو منه، ورحت في نوم عميق..



استيقظت في الظهر وجسمي كله يتألم، كانت الدماء قد غطت قدمي التي كثرت جراحها الصغيرة، فعجبت لعدم شعوري بآلامها البارحة، اغتسلت وأزلت آثار المغامرة ولبست ثيابي ثم خرجت إلى صالة الطعام فوجدت طعام الغداء موضوعاً على المائدة ولم أر الأمير كالعادة عليه، ولم أر حتى الخادمة فشعرت بالارتياح .. تناولت الغداء وحدي.. ثم عدت إلى غرفتي .. لم أستطع كتابة أي شيء في مذكراتي خشية أن يطلع عليها الأمير فتنكشف خطتي.

احترت في أمري، اصحباي في حاجة ماسة إلى الطعام، وأريد أن أعود إلى الغار لأسعفهما بالطعام لكنني لا أستطيع أن أحضر شيئاً إذ لا يوجد مكان أستطيع أن أشتري منه.. فلا سوق ولا بضاعة.. لكنني اطمأننت لوجود (لارو) الذي قال لي بأنه سيتكفل بالطعام من الصيد وبعض الثمار القريبة والنباتات حتى ننتهي من الأمر.

مرّ ذلك اليوم بهدوء عجيب لم أر فيه أحداً من أصحاب القصر، ونمت في الليل مبكراً وفيما أنا أغط في نوم عميق، طُرق الباب بقوة ففزعت وقمت ففتحته فإذا بالأمير (نارون) أمامي بوجه متجهم،

تبسمت له، لكن عبوس وجهه جعلني أرسم الحزن على وجهي فالرجل ما زال مصاباً في أخته.

قال لي بنبرة غريبة:

- السيد إبراهيم ... يجب أن لا تغادر القصر حتى يؤذن لك.

هززت رأسي وأنا أتوجس أمراً وقلت:

- أمرك سيدي.. هل لي أن أعرف السبب؟.

انصرف ولم يجبني.

عدت إلى داخل الغرفة وأنا أتساءل.. لماذا يجب أن لا أغادر؟. بالتأكيد لقد فضح أمرنا. وجعلت أتصور العواقب الوخيمة التي يمكن أن تحصل لو لم يتعاطف معي الأمير ويتفهم الوضع بشكل صحيح ... أخذت الخواطر تتزاحم في عقلي.

هل أهرب وكيف وإلى أين؟.

هل أصارح الأمير؟ لكن هل سيقدّر ما قمت به من أجل أخته أم يعتبره جريمة في حق آلهتهم اللعينة.

وكانت تلك الليلة أسوأ ليلة منذ أن وصلت إلى هذا القصر.. ولم يهجم النوم على جفني إلا بعدما مللت الفراش والتقلب عليه.

قمت في الفجر وصليت وتضرعت إلى الخالق سبحانه أن ينجيني من المأزق الذي وضعت نفسي فيه.

وفي الساعة التاسعة صباحاً انتبهت على صوت الباب الضخم الذي فتح ومعه أصوات الناس الذين دخلوا منه.. نظرت من النافذة فإذا بالناس يتجهون إلى ساحة العدل.. تساءلت من عسى أن يكون المتهم اليوم؟ .. وفهمت بأن هناك شخصاً سيقاد أمام الناس وسيحكم عليه بحكم همجي آخر ولست مستعدّاً للحضور ولا للشفاعة إلا لنفسي هذه المرة، أريد أن أبقى على سريري ولهؤلاء أن يديروا محكمتهم كيف شاؤوا فليس اليوم بأفضل من الأمس، ولن أستطيع أن أغيّر عقول أناس تحجرت منذ مئات السنين.

وفيما أنا على هذه الحال إذ طُرِق الباب ففتحته ووجدت الخادمة عند الباب بوجهها الخالي من التعابير ، نظرت إلى عيني بخبث ثم مدت يدها إليّ بكأس فيه شراب غريب وقالت:

- اشرب هذا.

خفت منها فهذه هي المرة الأولى التي تحضر لي عصيراً إلى الغرفة. أدركت أن هناك أمراً يدار في القصر ضدي، فقلت:

- شكراً أنا لا أرغب في شربه.

فمدت يدها بالكأس بقوة نحو فمي وقالت:

- إن سيدي السلطان يأمرك أن تشرب.

- أشكر سيدي السلطان لكني أشكو من ألم ﷺ بطني. ولا أتحمل شرب شيء الآن.

فضحكت وقالت:

- أيها الغبي إنه ليس سمّاً، من الأفضل لك أن تشرب منه قبل أن يغرس هذا الحارس حربته ﷺ جنبك. ... انظر.

ثم شربت منه قليلاً. ثم مدّته إليّ.

نظرت إلى اليمين فإذا الحارس واقف كالعود المحروق ينظر إليّ بعينين حادتين.

فأخذت الكأس وأنا أنظر إلى الحارس وشربت منه قليلاً كدت أقذف ما ﷺ كبدي من سوئه، ثم دفعت إليها كأسها، ابتسمت بخبث ثم قالت:

- إن سيدي (نارون) ينتظرك ﷺ الأسفل.

نزلت إلى الأسفل وأنا متوجس خيفة.. فقد تغيّرت الأمور بشكل متسارع.. وجدت الأمير واقفاً ﷺ البهو فأشار لي بوجه جامد، وقال

بنبرة جافة:

- عد إلى الغرفة وارتد ملابسك الغربية التي جئت بها وارجع إليّ هنا.. هيا بسرعة.

فهمت بأنه سيتم طردي فوراً، فأردت أن أستوضح منه فقلت بصوت خفيض:

- وهل أحضر حقيبتي؟.

قال:

- لا ... سنرى فيما بعد .

كان تغيّر لهجة الأمير لي مؤلماً جدّاً فقد انقلب الصديق إلى عدو..

عدت إلى غرفتي على عجل وارتديت ملابسي، لكن تلون وجهي ويديّ أزعجني كثيراً فقد بدا البياض يظهر كثيراً في مواقع ويتغلب السواد في مواقع أخرى، ولا أتمنى أن يراني الناس في المدينة بهذه الصورة الغريبة.

نزلت إلى البهو وقد شعرت بشيء من الدوار وخدر في فمي، فأدركت أنه بسبب الشراب الذي ناولتنيه الخادمة، وأنه قد بدأ مفعوله، فخشيت أن يكون سمّاً حقيقياً لكن الأحداث المتسارعة أشغلتني عن هذا التفكير.

لم أجد الأمير ولكنني وجدت واحداً من العمالقة الحراس واقفاً مكانه. فأقبل إليّ بقسوة، وأمسكني بعضدي، التفت إليه وأردت أن أنزع عضدي من كفه لكنه سحبها وكاد ينزعها هو من كتفها، ولم ينظر إليّ ولكنه اجترني نحو الخارج من الباب الرئيس للقصر.

تمنيت حينها أن يراني الأمير وأنا في هذه الصورة التي كنت لا أتوقع أن يرضاها لي لكني ما كدت أتلفت يمنة ويسرة أبحث عنه وانتظر زجره للحارس حتى وصل بي المارد إلى ساحة العدل، فإذا بالقوم جلوساً على المساطب والسلطان على كرسيه والأمير على كرسيه والكاهن على كرسيه.

أردت أن أتوجه إليهم لكن الحارس تلّني إلى الجذع المغروس في وسط الساحة والذي شهد محاكمة (لارو)، نظرت إلى الأمير مستنجداً فأشار لي أن قف حيث يأمرك الحارس.. فزعت.. وأشد ما أفزعني حينما نظرت إلى الأرض التي أقف عليها حول الجذع فإذا هناك دم أسود يابس قد تشقق عن التراب..

أقبل حارس آخر فسحبني مع صاحبه بعضدي ثم ربطاني من خلفي بحزام من جلد. وأجلساني أمام العمود هنا اصطكت ركبتاي وعلمت بأن أجلي قد حان وأن القصاص من أجل الحارسين اللذين أطلقت عليهما النار قبل البارحة وهما يحرسان قفص الأمير قد حان.. لم أشعر بذل مثل تلك اللحظة.

أردت أن أتكلم فركلني حارس من خلفي في ساقي، ومع هذا فقد ثقل لساني .. قام الكاهن وقام اثنان من يمينه وآخران من شماله يرتدون ملابس غريبة هي أشبه بملابس الكهنة.. تكلم الكاهن بكلام لم أفهم منه إلا بضع كلمات تفيد بأنني حمت حول المعبد ليلة زفاف الأميرة وأنني أردت سرقة القرابين لولا أن الحراس طردوني قبل أن يغادروا. حتى إذا انتهى تكلم السلطان بكلمات بسيطة لكنه يبدو بأنه مستاء لما يحصل. ثم قام الأمير وقال بالإنجليزية:

- أيها الضيف الأبيض.. لكم أكرمناك وأسكناك في قصرنا وقلدناك شرف علاج السلطان. فإذا بك تعتدي على أعراضنا وتقتحم معابدنا ليلاً وتتدخل في ما لا يعنيك.. لقد حذرتك من قبل وقلت لك: بأننا لا نسمح لأي أحد كائناً من كان أن يتدخل في معتقداتنا وموروثاتنا أو يمسها بسوء أو يسخر منها.

وقد حكم عليك المجلس بمباركة من الكاهن العظيم وموافقة من السلطان الأعظم بأن تقدم للحية المقدسة.

ثم جلس مغضباً.

صعقت من هذه المحاكمة السريعة جدّاً،ومن هذا الحكم الجائر الذي لم يدر بخلدي أن يكون من نصيبي مهما أجرمت في هذه الدنيا.

أردت أن أدافع عن نفسي ناسياً أنني في محكمة متخلفة ليس فيها لأحد أن يدافع عن نفسه، ولو ترك له أن يتكلم فما هي إلا شكليات فارغة لأن الحكم قد تم تفصيله على المتهم قبل حضوره أمام القاضي. يا لقسوة أحكام هذه المحاكم، ويا لحظ ضحاياها العاثر وهم يعانون من القهر والغبن قبل تنفيذ تلك الأحكام الهمجية.

فجاهدت لساني الثقيل وقلت مخاطباً السلطان:

- أيها السلطان العظ...

وما أن نطقت بهذه الكلمات.. حتى استيقظت وأنا أشعر بألم شديد في رأسي وقطعة من الجلد النتن تملأ فمي ومشدودة إلى قفاي ويداي ورجلاي مربوطتة على عيدان خشنة غاية في القسوة، نعش قاس تحتي ورجال أربعة يحملونني خارجين بي من الباب الكبير.. فأدركت بأنني ضربت على رأسي عندما أردت أن أتكلم. أو أن المخدر فعل مفعوله.

حاولت أن أتحرك ولكن لا فائدة.. استقبلتني الطبول والأهازيج خارج فناء القصر وصار الناس يرقصون من حولي وسوادة القهر تغشاني من فوقي.

كان رأسي يتحرك لأرى الأمير والكاهن وسدنته يسيرون في موكبي وهم يزفونني إلى حيتهم المقدسة.

الله أكبر كل شيء مقدس عند هؤلاء البدائيين حتى الحيات مقدسات عندهم.

في البداية تذكرت صورة الحية الكبيرة في سقف المعبد وصور الحيات على حيطانه وأحجاره فقلت لعلهم سيقدمونني كما قدموا (نارونا) ثم يتركونني ليتلقفني خصومي ليلاً.. لكنهم بدلاً أن يتوجهوا إلى المعبد أخذوا الطريق إلى الجنوب.. بخطا سريعة على إيقاع الرقصات الغبية، والزغاريد المزعجة.

شعرت بالظمأ الشديد ولعل حلقي جفّ من الخوف والهلع الذي أعيشه.. لكن التفكير في عضات الحية السامة وآلامها أنساني الظمأ وأذهلني عن قسوة النعش تحتي.

والذي زاد من غيضي نظرات الكاهن الوقحة التي كان ينضحني بها بين الفينة والأخرى بابتسامات ساخرة بغيضة. يرفع عصاه آمراً الرعاع برفع الصوت والنشيد.

تذكرت منجياً واحداً لا غيره هو من يستطيع أن ينجيني من هؤلاء البدائيين.. وهو وحده الذي يستطيع أن يرسل من خلقه من يفكني من أسري. إنه الله الواحد القهار. فلجأت إليه أدعوه وأتوسل إليه بكل قلبي مخلصاً له الدعاء.. وأقول: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث.

ساروا بي ما يقرب من ساعتين حتى شعرت بأن عظام ظهري قد اخترقت جلدها من العيدان التي تحتي التي غرقت بماء عرقي المتصبب. ولما وصلوا إلى دوحة عظيمة مليئة بالأعشاب الطويلة والشجيرات الشديدة الخضرة وقد قاربت الشمس من كبد السماء وآذت عيني بشدة، إذ ليس في السماء إلا غيوم قليلة كئيبة لا تستر من شمس ولا تبشر بمطر. أنزلني الرجال من على أكتافهم وأسقطوا النعش بقوة إلى الأرض فصرخت فيهم من الألم وأنا أشتمهم، لكن لم يصدر مني صوت فقد كانت حتجرتي مخدرة والأمير ينظر إليّ بنظرة ساكنة لا أدري هل هي شفقة إنسانية أم حزن على الأيام الخوالي.

كنت أريد أن أصرخ وأوقف الأمير لأخبره بما حصل لكني لم أستطع، فالجلد العفن يملأ فمي والتخدير فعل مفعوله بحنجرتي ولساني وبرأسي أيضاً رغم أنني أشعر أنه بدأ يخف عن ذي قبل.

فكوا رباطي من النعش لكنهم زادوا في الحبال الجلدية الدقيقة التي حزمت يدي إلى جنبي وقدمي بعضهما إلى بعض حتى أصبحت كالعصا.

اصطف الجمع حول الأمير بعيداً عني ثم أقبل الكاهن نحوي يتكلم بكلمات غريبة ويشير إليّ ويشير إلى جهة الجنوب حتى وقف عند رأسي وظهره إلى قومه ثم جلس القرفصاء وحدّ بصره في عينيّ وابتسم وهو يهز عصاه على جسدي وقال بلغة إنجليزية جيدة وبصوت خفيض:

- أهنئك بهذا المصير أيها الأبيض الوقح... لا أحد يستطيع أن يتحداني أيها الأبيض الجبان .. ستكون بعد لحظات في بطن حيتنا المقدسة. جزاء لقتلك رجالي.. أما عشيقتك الفاجرة (نارونا) فسيكون مصيرها في يدي. وهربها لن يفيدها شيئاً فخدمي يبحثون عنها في كل زاوية من هذه الصحراء وسيجلبونها لي صاغرة لتبقى جارية عندي.

ثم تبسم ساخراً ولوّح بعصاه، فجاء رجل بقربة صغيرة سوداء فلما وقف بجانبه قال الكاهن لي:

- سيصب عليك خادمي هذا حساء مفضلاً لحيتنا، هذا الحساء من الدم واللبن سيريحك كثيراً من طول الانتظار، ويجعلها تتلذذ بطعم بطل أحمق.

- ثم ضرب بطني بعصاه برفق وقال:

- وداعاً.

انصرف الكاهن وفتح الرجل وكاء قربته وجعل يصب سائله الأحمر النتن على ثيابي ووجهي.وبينما هو يفعل ذلك كان الكاهن وسدنته يتمتمون.

ثم رقص الرعاع حولي قليلاً وهم يشيرون إليّ بأصابعهم وعصيهم ثم يشيرون بها نحو المعبد والجبل، وبعد دقائق صرخ فيهم الكاهن فانصرفوا مسرعين من حيث أتوا.

كانت الشمس في عيني فانقلبت على وجهي بقوة فملأ الحشيش فمي وصعب تنفسي فانقلبت مرة أخرى على جنبي وأنا أنازع حبالي بشدة لكن دون فائدة لم أستطع الخلاص منها، وقلبي يلهج بالدعاء وعيناي تذرفان الدموع وقلبي يملؤه الرعب الذي يكاد يخلعه وأنا أتصور الحية تسير بين الحشائش مقبلة إليّ لتملأ جسدي بعضاتها السامة.. يا له من عقاب قاس ونهاية مأسوية.

كنت أستأنس بأصواتهم وهم ينصرفون رغم أنهم هم الذين وضعوني هنا وأغرقوني بالدم وأتمنى أن لا يغادروا، ولكن انقطع صوت الرجال وطبولهم. وتضخمت حاسة السمع عندي حتى أصبحت أسمع هسيس كل حشيشة تحتك بأختها. وطال الوقت عندي.

وبعد مدة قصيرة من الزمن الحقيقي أصبحت أسمع خشخشة النبات تزداد فتصورت الحية الضخمة منطلقة نحوي وهي تصرع الحشائش والشجيرات يمنة ويسرة فأخذت أعض على أسناني وأغمض عيني، وأدعو الله أن ينقذني فإن كان القدر قد حل فليخفف آلامي ويلهمني الشهادة.

اقترب الصوت وحسيس الحشيش يتقطع ففتحت إحدى عيني وما هي إلا لحظة حتى ارتكز أمام عيني رمح اخترق الأرض ، التفت لأعلاه فصرخت من الفرحة لكن الصرخة كادت تفجر حنجرتي المخدرة والمسدودة .

إنها أعظم مفاجأة سارة في حياتي حتى الآن، إنه (لارو) بلحمه ورمحه أما شحمه فلا شحم له.

هوى إليّ متبسماً وجلس القرفصاء وعينه تتردد بين جهة الجنوب ووجهي الشاحب الذي ارتسم عليه شبح الموت. ثم هوى بسكينه وجعل يقطع الأربطة التي تلفني ثم أقامني وهو يأمرني بسرعة التحرك من المكان.. قمت بصعوبة، وحاولت المسير لكني كنت أشعر أني ما زلت مقيداً، وآلام ظهري تضغط على أعصابي بشدة، فأخذ بيدي وجعل يسحبني ويركض بي، لم أساعده فصرخ بي قائلاً:

- أتريد أن تموت؟ اركض .. الحية ستأتي وتأكلنا جميعاً.

انطلقت قدماي وركضت معه بصعوبة، اتجه بي نحو الشرق حتى وصلنا إلى جدول صغير يتخلل النباتات فقال:

- بسرعة اغتسل بملابسك هنا..

قفزت إلى الماء وجعلت أشرب لكنه جعل يغسلني بالماء مما لطخني من دماء نتنة، وينهاني عن الشرب، وأنا أضحك بهستيريا.

كنت أملأ فمي بالماء وأشرب وأغسل جسمي في وقت واحد.. حتى ابتلت عروقي كما ابتل جسمي كله وزال كل الدم الذي كان على جسمي وثيابي..

توجهنا منخفضي الرأسين إلى شجرة عالية كثيفة الأغصان فارتقيناها.

قلت له:

- لماذا نرقى هذه الشجرة؟ .

قال:

- إنها فرصة أن نرى الحية المقدسة التي كنت ستقدم لها قرباناً. ولكي لا تلحق بنا إذا رأتنا نهرب.

سألته:

- وهل رأيتها من قبل؟.

قال:

- لم يجرؤ أحد على أن يبقى ليراها، ولكن هذه فرصتنا نحن لنرى حقيقة ما يقولونه عنها، إنهم يبالغون كثيراً في حجمها.

قلت وأنا خائف:

- ربما ترانا هنا أو تشمنا فتأتي إلينا وتأكلنا.

ضحك وقال ساخراً:

- هي لن تستطيع اللحاق بي، سأطلق قدمي للريح، أما أنت فربما تستطيع أن تلحق بك وتبتلعك، ولكن هذا هو حقها المقدس فقد كنت وليمتها هذا اليوم لكنني حرمتها منها.

ولما وصلنا إلى أعلى الشجرة انتظرنا حوالي نصف ساعة فإذا بالشجيرات والأعشاب تتمايل وتفترق من بعيد.. وكم كان خوفي حينما رأيتها من بعيد إنها أصلة عظيمة داكنة اللون، طولها يزيد على العشرة الأمتار أو هكذا أظنه. حقّاً إنها مرعبة.

خيّم علينا السكون وهي تنطلق إلى حيث المكان الذي وضعت فيه رفعت رأسها ودارت على نفسها مرتين. لكنها لم تجد شيئاً فعادت بسرعة من حيث جاءت، مكثنا فوق الشجرة بعد انصرافها ثم نزلنا من فوق الشجرة واتجهنا نحو الغرب نحث السير إلى غار (نارونا).

سألته ونحن نسير:

- ما هي حكاية هذه الحية؟..

فأجاب:

- إنها حية اعتادت على أن يقدم لها رجلٌ أو أكثر من القبيلة كل عام، وخاصة الذين يقومون بأخطاء شنيعة. ويقولون إنها هي التي باركت الإله الأعظم الأول. هذه الحيات تعمر طويلاً.

قلت:

- المعبد للجميلات والحية للمجرمين.. وكلاهما مقدس.

ضحك وأنا أسأله:

- كيف عرفت بأنني هنا وأنت في الغار؟.

قال:

- استبطأتك، فقلت ربما حدث له مكروه، فرأيت أن أسترق خبرك وأحضرت بعض الصيد لأهلي وأخبرتهم بأنني ربما أتأخر أياماً في الصيد. فلما وصلت صباح اليوم أخبروني أنه أذيع في القرية بأنك ستحاكم، فلما خرجوا بك من القصر سبقتهم إلى هنا واختبأت على هذه الشجرة. فلما انصرفو أقبلت إليك.

بالغت في شكره وأردت أن أمد يدي له لأصافحه فصفعها بقوة وهو يضحك. فعلمت أنه يحب المزاح فلكمته في صدره فلكمني في صدري مثلها، فهجمت عليه وصرعته، ومكثنا نتصارع دقائق وجدته رغم نحولة جسده قويّاً صلباً.

تنشط بعدها جسمي وأحسست بأن عضلاتي تحررت ونفسي انطلقت من الضحك.. لكن ثيابي التي لم تجف بعد تحملت بالأتربة.

واصلنا المسير، ومررنا على مكان وجدنا فيه بعض الزاد الذي وضعه (لارو) قبل أن يأتي إلى موقع الإنقاذ فأخذناه واتجهنا إلى الغار الذي وصلنا إليه الساعة الرابعة عصراً.. وكان فرح (نارونا) بنا لا يوصف.. لكنها لم تأخذ خبرنا قبل أن نستريح.

❊ ❊ ❊

بعدما استرحنا قليلاً قام (لارو) إلى أرنب معلقة كانت (نارونا) قد صادتها صباح اليوم فأخذ يشويها وأنا ممدد على ظهري أنظر إلى الصخرة التي تعلو الغار إذ قال (لارو) يخبر (نارونا):

- ذهبت من هنا صباح اليوم فعلمت أن إبراهيم يحاكم لجرم لم يعرفه الناس، فلما توجهت إلى القصر وجدته محمولاً على النعش مربوطاً لا يستطيع أن يفعل سوى النظر في الناس (يضحك) وعيناه تذرفان الدموع. عرفت من الناس أنهم سيأخذونه إلى الحية المقدسة..

قرباناً أبيض هذه المرة.

صاحت (نارونا) وهي تلتفت إليه وإليّ:

- ماذا؟ ماذا؟ .

قلت وأنا ما زلت مركزاً نظري على الصخرة:

- عرف الكاهن أنني أنقذتك وأنني قتلت صاحبيه، ويظن أن بيننا قصة حب.

قالت منفعلة:

- يا له من حقير! هل أعلن بين الناس أن بيننا علاقة حب؟.

- لا .

- فما هي تهمتك المعلنة إذاً؟.

- أخبرني أخوك في الساحة قبل النطق بالحكم أنني حمت حول الضريح تلك الليلة وأنني حاولت السطو والسرقة من القرابين أثناء وجودك في المعبد.

نظر إليها (لارو) وقال:

- لقد أشيع بين الناس في القرية أنك نجوت من إبراهيم الذي أراد أن يختطفك، وأنك الآن في الجبل في خدمة الآلهة.

علقت قائلاً:

- أسرّ لي الكاهن وأنا مربوط للحية وقبل أن يودعني منصرفاً أن خدامه يبحثون عنك في كل زاوية من هذه الصحراء وسيجلبونك إليه صاغرة لتكوني جارية عنده.

اربدّ وجهها غضباً وقالت:

- سحقاً لهذا الكاهن اللعين، لقد كنت أشك في تصرفاته كثيراً، ولكن لن أغفر له ذلك إن تمكنت منه.

ثم أكمل (لارو) خبر إنقاذه لي ورؤيتنا للحية. بدت شفقة (نارونا) عليّ واضحة بشدة وجعلت تبكي وتعتذر لما أصابني بسببها، لكني حاولت أن أهدئ من روعها، فلما سكتت قالت:

- يا إلهي هل حدث هذا كله لك يا إبراهيم؟.

فقلت ممازحاً:

- ماذا تقصدين بيا إلهي؟ هل هو الإله الذي في السماء أم الذي في الجبل أم الذي في الضريح؟.

ضحكت وقالت:

- بل الذي في السماء. أما الآلهة الأخرى فإنما هي مزيفة. أليس كذلك؟.

صفقت بحماس وأنا أقول:

- عظيم ... هناك تقدم رائع في الفكر هنا في القبيلة ... الإله الذي في السماء هو الخالق وهو من يستطيع أن يساعدنا، أما آلهة الجبل والمعبد فتسرقنا وتغتصب نساءنا، أليس كذلك يا نارونا؟!

لم يعقب أحد منهما على كلامي والسبب واضح.

٦

مكثنا يومين في الغار ونحن نلملم ما تناثر من أرواحنا وكنت قد مررت بأوقات كدت أفقد فيها عقلي أو يسكت فيها قلبي.

كان (لارو) و(نارونا) يذهبان إلى الغابة فيصيدان بعض الطيور والأرانب.. والعسل.. وكانت تلك المناشط والشيّ والأكل مسلاة لنا في تلك العزلة من العالم..

وكان الطقس معتدلاً مما جعلنا لا نعاني من برد الليل.. وخاصة أننا كنا نطفئ النار أثناء الليل كيلا تدل علينا أحداً من بعيد، وإن كنا نبقي بعض الجمر ليوقد لنا نارنا في الصباح..

عاد إلينا نشاطنا وتجددت عزائمنا على إكمال مهمتنا والتي فيها نجاتي ونجاة (نارونا)، وفضح الكاهن الخبيث، وكنت قد أخبرت (لارو) ونارونا بكلام الكاهن لي وأنا ممدد بوضوح.

عزمت أنا و(لارو) على غزو الجبل المقدس وكشف المستور وفضح المخبّأ ومعرفة ما الذي يدور في قمته وما الذي يصنعه فيه ذلك

الكاهن... لقد توثقت من أن مركز عمليات الشعوذة والنصب يقع هناك حيث يتحكم في هذا الشعب المسكين وقد أصبح (لارو) مقتنعاً بما أقوله عنه، وكذلك الأمر بالنسبة لـ(نارونا) التي كادت تكون ضحيتها.

كان إيماني مركزاً ومكرراً بما فيه الكفاية لتغيير القناعات الهزلية في الأصل عن قداسة هذا الجبل الأصم وذلك الكاهن الكذاب.

في الصباح الباكر لليوم التالي وبينما نحن نتداول خطة الهجوم:

قلت لهما:

- المشكلة الحقيقية التي تواجهنا تكمن في النهاية، فلو اكتشفنا الحقيقة فماذا عسانا أن نفعل؟ من سيصدقنا؟.

التفتت (نارونا) إلى (لارو) الذي بادلها النظر وكأنه لم يخطر ببالهما هذا السؤال من قبل، ثم أجابت (نارونا) متعجلة:

- سنرسل إلى أبي و(نارون) ونخبرهما بالخبر.

قلت:

- وهل تعتقدين أن أباك سيرضى بخروقات مثل هذه؟. إذا كان قد حكم عليّ بأقصى العقوبات لأنني مررت بالمعبد كما تليت التهمة فكيف

سيكون العقاب إذا اخترقت الحجاب المقدس؟.

وفيما أنا أتحدث إذ تذكرت شيئاً هاماً فقلت:

- ياه.. ألم أقل لكما أن الكاهن سيرسل خدامه للبحث عن (نارونا)؟. لا بد أن عيونهم تبحث في كل مكان وأنتما تصيدان وتتحركان بحرية..

فقال (لارو) بثقة:

- لا يهمك.. المكان هنا بعيد جداً عن سلطانهم والمنطقة هذه مخيفة ولن يخطر ببالهم أن فتاة مثل (نارونا) ستأتي إليها، ثم إن الناس تتحاشى المرور أو الصيد هنا، لأن هذه المنطقة معروفة بغول يعيش فيها يقتل الناس ويأكل لحومهم.

اتسعت عينا (نارونا) وهي تنظر إليه وكأنها مبهورة وقالت:

- ماذا؟! هل هذه المنطقة التي يقال عنها بأن فيها غولاً يأكل لحوم البشر؟ وهل هذا هو غاره؟.

ضحك (لارو) بصوت مرتفع وهو يومئ برأسه وقال:

- نعم.. ولكن لا تخافي يا (نارونا) لا تخافي.. فأنا من كان ينشر ذلك في القبيلة.. لكنها إشاعة كنت أسوّقها كي لا يأتي أحد إلى هنا حين كنت أسرق الجداء وآتي بها إلى هنا لآكلها..

حقيقة شعرت بالخوف وأعتقد بأن (نارونا) تشاركني الشعور نفسه.. لكنه جعل يكرر.. هذه إشاعة وأنا الذي كنت أسوّق لها في القبيلة.

وجعل يضحك.. كان القلق الذي أظهر سيطرته على (نارونا) زادني قلقاً أنا أيضاً.. لا أدري فربما يكون صادقاً، أنا لا أصدق بوجود الغيلان لكن أصدق بوجود أناس في هذه الدنيا يأكلون بني البشر، وربما يكون هو آكل لحوم البشر نفسه وربما أنه يكذب علينا ليطمئننا وأن هناك غولاً حقيقياً آخر يقتل الناس ويأكلهم..

ولكن على أي حال فنحن لن نجد مكاناً أكثر أمناً، فعيون الكاهن ستصطادنا لو فارقنا هذه المنطقة.

بعد لحظات انصرفنا إلى حديث آخر، وجعلت أفكر في الأمر لكنني كنت أريد أن أبحثه مع (نارونا) بشكل منفرد، فرأيت أن أبعد (لارو) وأستفيد من غيابه، فقلت له:

- لارو .... لماذا لا تذهب إلى القبيلة وتنقل لنا ما يدور هناك وتأتي لنا بالخبر.. وكذلك تسعفنا بما يمكن أن يسد رمقنا من طحين؟.. لقد اشتقنا للخبز..

استحسن (لارو) الرأي، وبدون تردد وكأنه ينتظر هذه المهمة بفارغ الصبر فنظر إلي ثم إلى (نارونا) ثم صرخ:

- ياهوووو

والتقط رمحه ثم انطلق نحو الخارج، وجعل يقفز بين الصخرات وكأنه ظبي، أما أنا فقد بقيت أشيّعه من حيث لا يراني وقد رابني كثرة تلفته نحو الغار، عدت إلى (نارونا) التي كانت تنظف الأواني قرب النبع، فقلت لها:

- هل حقاً سمعتِ من قبل بغول يأكل لحوم البشر هنا؟.

قالت:

- نعم.. كان يشار إلى هذه المنطقة أما الغار فلا أعلم.

ثم صكت جبهتها براحتها واستأنفت:

- ياه.. كيف غابت عني هذه الأسطورة حينما غبتما ؟ أظن لو أنني تذكرتها حينذاك لمتّ من الخوف.

أردت أن أطمئنها وإن كان الخوف ما زال يسكن قلبي، والشك في (لارو) لم يغب كثيراً عن خاطري. فقلت لها:

- لا.. لا أظن ذلك صحيحاً.. فلا يوجد غيلان، ولو كان كذلك لوجدنا عظاماً بشرية متناثرة هنا وهناك.

لم يمض على مغادرة (لارو) ساعة حتى بدأت السحب تتراكم حتى اسودت السماء وأظلمت الأرض.. ثم هبت ريح شرقية عاتية أحدثت صفيراً مروعاً بين الصخور.

وما هي إلا دقائق حتى همى المطر وصبت السحب قربها على الغابة أمامنا والجبل فزاد الظلام حلكة والطقس برودة، فالتحفنا بجلود الحيوانات ونحن لا نرى إلا السماء والمطر.. وما هي إلا لحظات حتى سمعنا هديراً وجلجلة عنيفة فقمت لأنظر فإذا بسيل عرمرم يملأ الوادي العريض تحتنا وقد اصطك من كل جانب. عدت إلى الغار فزدت في إيقاد النار بشيء قليل من الحطب لنتدفأ حولها.

كانت عينا (نارونا) تدوران خوفاً من صوت الصواعق ولمعان البرق الذي يخطف الأبصار، مسكينة تلك الأميرة التي ترفل بباقي ثياب الزفاف المقدس وهي تشعر بأنها غير مرغوب فيها حتى عند أبيها، لأنها تعتبر ناشزاً من الآلهة المزعومة التي تقدسها كل القبيلة.

ليس عندنا ما نصنعه لشرب شيء يدفئ أجوافنا بل إن رائحة ما تبقى من اللحم أصبحت تضايقني وهي في آخر الغار.

انكشفت الغمة بانكشاف السحب التي تتسابق إلى مضمار آخر.

من المتوقع أن يصل (لارو) ربعه قبل الساعة العاشرة صباحاً إذا لم تؤخره الأمطار والسيول في طريقه.

مرّ علينا اليوم ثقيلاً ونحن نترقب عودة (لارو).. وكان أكلنا من اللحم المشوي الذي لم نعد نستسيغه، فبطني أصبح يقرقر ويؤلمني من كثرته أما أوراق النباتات وبعض ورق الأشجار فلم أستطع أن آكلها كما يفعل (لارو) و(نارونا) التي شبعت منها ذلك اليوم.

أظلم الليل وأطفأنا النار كالعادة وهجم علينا الظلام وسيل من الهواجس والتوقعات السوداء.. وصار الرجل المتوحش آكل البشر يتصور أمامي بصور مختلفة ولا أظن أن (نارونا) أحسن حالاً مني.. لكنني تركتها تدخل آخر الكهف وبقيت أنا قريباً من المدخل وقد برد الطقس وصرنا نتمنى لو أننا نستطيع أن نوقد النار لكن الحطب قليل وما جمعناه في النهار ما زال رطباً لا تأكله النار فالتحفنا وصرنا نتوسل النوم لعله يهجم على أجفاننا ويسكن قلوبنا من المخاوف التي تتضخم كلما مرّ الوقت.

عمّرت مسدسي وأمّنته ثم وضعته قريباً من يدي وأنا نائم.. وبدأ النوم يصارع الخوف ولم يتغلب أحدهما على الآخر، وفيما أنا أفتح عيني وأغلقهما ببطء شديد إذ سدّ فتحة الغار مخلوق نحيف طويل ورمحه بجانبه، خفق قلبي فرفعت مسدسي بسرعة وصحت فيه بلغتهم:

- من أنت؟ ..

فرفع يديه وقال:

- هيه .. على رسلك يا إبراهيم .. أنا (لارو).. أنا (لارو)..

ارتجفت أعضائي وصار قلبي يخفق بقوة..فقد تخيلت آكل لحوم البشر قد حضر وأنه سيفاجئني بالطعنة قبل الرصاصة.. لكن الله سلم.. دخل يرتعد من البرد، وتوجه إلى حيث الجمر الذي أصبح أكثره رماداً وجعل يحركه ليتدفأ بما تبقى منه وهو يفرك كفيه المعروقتين .. نهضت وجلست بجانبه في الظلام فأقبلت (نارونا) تتحسس. وجلست بجانبي.

قلت له:

- الحمد لله على سلامتك ... قل لي ما هي الأخبار؟ ..

قال:

- يقولون: بأن السلطان مريض.. مريض جدّاً.. والعلاقة بين الأمير والكاهن متوترة حيث قالوا: إنهم لاحظوا أن الأمير كان غضباناً من تصرفات الكاهن أثناء تقديم إبراهيم للحية.

قلت:

- وهل هناك إشاعة عن الأميرة أو عني.

قال:

- سمعت من عمتي أن النساء يقلن: إن الآلهة لم تتقبل الأميرة كعروس، ولكن كخادمة.. لأن الغريب دنس ليلتها.. ويقلن: إن الآلهة ربما تطردها أو تقتلها. ضحكت.. فقالت (نارونا):

- لم تضحك يا إبراهيم؟.

قلت:

- كنت متوقعاً أن تصنع مثل هذه الإشاعة .. لأن الكاهن سينشرها من أجل تشويه سمعة الأميرة.. لأنها هربت.. فإذا عادت أصبحت منبوذة أو إذا قتلوها.. قالوا قتلتها الآلهة.. لا بد أنهم يبحثون عنك يا (نارونا)..

* * *

في صباح اليوم التالي استيقظت باكراً وأيقظت (لارو) الذي بدا عليه الإجهاد والرشح بسبب ما تعرض له بالأمس من البرد، فأكلنا ما تبقى من الخبز الذي شويناه على الفحم البارحة ثم شربنا من الماء البارد عليه، وتوجهنا باسم الله إلى الجبل المقدس لأخوض مغامرة طالما استفزتني منذ أن دخلت البلدة.

أخذت الكاميرا واطمأننت على بطاريتها والشريط والذاكرة التي فيها. بالإضافة إلى رفيق إبطي مسدسي، أما (لارو) فكل عتاده رمحه

الطويل، وتركنا (نارونا) ونحن نظن بأن أفضل مكان لها هو ذلك الغار.

وكان آخر عمل قمنا به من أجلها أن وضعنا حجراً كبيراً لا يستطيع أن يحركه إلا اثنان في المكان الوحيد الذي ينزل من القمة إلى الكهف وأوصيناها بعدم الظهور أو الخروج من الكهف خشية أن يراها أحد.

كان الصباح بارداً والأرض مبتلة بل إن ماء الغدران في كل مكان..

جميل ذلك الصباح وأنت ترى فرحة الطيور وهي تنتشر في الأشجار تعزف ألحانها العذبة على الأغصان.. وكأنها تغني لنا أنشودة وطنية لترفع فينا حماس الحرب.

لكن الشعور بالإثارة ودغدغة الخوف الذي ينازع صدري صرف سمعي عن تلك الألحان الجميلة.. وكلما اقتربنا من السفح الجنوبي للجبل زاد ذلك الشعور.. بينما لاحظت (لارو) يتقدم بكل عزم وشجاعة وهو يعض طرف شفته السفلى من حين لآخر.

واصلنا المسير بين الأشجار حتى أصبحت أكثر كثافة فصرنا نتخللها ونبحث عن مسالك بينها نحو الأعلى.

ثم أخذنا ننطلق من شجرة إلى شجرة نختبئ خلفها خوفاً من

وجود حراس في الطريق.. ولا بد أن يكون هناك حراس.. وما أن وصلنا منتصف سفح الجبل المغطى بالتربة المبلولة والأحجار الصغيرة.. حتى صرنا أكثر حرصاً وتحفزاً.

كنت أسير في الأمام بينما (لارو) كان يبعد عني إلى اليمين قليلاً، لم أشعر إلا وقد اختنقت وكادت رقبتي تتحطم من قبضة سوداء التفت حول عنقي بسرعة، ونفس قبيح فوق رأسي، وما أن بدأت الظلمة تغشى عيني والدوار يغزو قمقم رأسي وبدأت يداي تسقطان إلى جانبي حتى سقطت تينك اليدان التان تخنقانني مع أنين عميق ثم سقط أمامي عملاق أسود ضخم وقد انغرس رمح (لارو) في جنبه والدم يثغب من فيه.

ذهلت من الموقف وفيما أنا أتفحص الرجل إذ أقبل إليّ (لارو) وقد احمرت عيناه وخرج الزبد من طرفي فيه والغضب قد حمّر وجهه.

نزع رمحه باحتراف من جانب الرجل، ثم نظر إليّ وتبسّم وكأنه لم يفعل شيئاً ثم قال بصوت خفيض:

- لكم أنقذت حياتك أيها البطل الأبيض.

نظرت إليه شاكراً ممتنّاً وأنا ما زلت متأثراً من الصدمة.

مسح (لارو) دم الرجل في ثيابه ثم قلبه على جنبه الآخر فوجدناه

يحمل مسدساً من عيار ٤٥ملم، فأخذته وتمنطقت بحزامه، وتركنا بوقه المعلق في رقبته. الذي قال عنه (لارو) بأنه للإنذار المبكر وأن الناس يسمعون هذه الأبواق في الليل أحياناً.

وبينما كنت أربط الحزام قال لي (لارو):

- لماذ لا تعطيني هذا المسدس؟ .. فلديك مسدس آخر.

قلت ليه:

- ببساطة .. لأنك لا تعرف كيف تستخدمه، وهو خطر عليّ وعليك.

واستمررنا في الصعود حتى انتصفنا سفح الجبل فإذا بنا نرى من بعيد كوخاً مرفوعاً بين الأشجار ومدعماً بأعواد أخرى في الأرض..

فاختبأنا وانتظرنا دقائق لنرى هل يوجد فيه أحد لكن لم نر ولم نسمع شيئاً. أخرجت مسدس الحارس وعمّرته، وصرت أتقدم بخطوات حذرة وكذلك فعل (لارو) برمحه .وفجأة سمعت صوتاً فوقي على الشجرة فصوبت فوهة المسدس نحوه فإذا هو ببغاء على غصن قرب باب الكوخ يقول كلمات لم أفهمها ويهز رأسه بعنف.

ضحك (لارو) ضحكة مكتومة.

وقفت أسفل السلم وأشرت لـ(لارو) أن يصعد وسأحرسه، وصل نهاية السلم ودفع الباب برأس رمحه فانفتح بسهولة، نظر إلى الداخل ثم أشار إليّ أن أصعد إليه وبقي مكانه واقفاً.

رأينا في أقصى الكوخ امرأة سوداء نائمة، تلبس حلة جميلة، وفي قدمها سلسلة طويلة مربوط طرفها الآخر في أحد أعمدة الكوخ.. لم تشعر بنا، اقتربنا منها بحذر.. فوجدنا في الكوخ تجهيزات جيدة من الأثاث الذي لا يوجد عند أثرياء القبيلة، ومواعين جديدة بل وموقداً باسطوانة غاز ومصباح كيروسين.. أشياء لا توجد إلا في قصر السلطان.. كان نوم الفتاة ثقيلاً، فلم تشعر بنا.

انسحبنا من المكان بحذر ثم أغلقنا الباب ونزلنا من الكوخ لنواصل صعودنا إلى قمة الجبل.

سرنا ما يقرب من ربع الساعة أو أكثر وفجأة رأيت نحو قمة الجبل سياجاً عالياً من جذوع الأشجار التي انتصبت كالحراب مدببة الرؤوس شديدة التركيب مغروسة في الأرض بقوة مثبتاً بعضها ببعض بأخشاب عرضية لا يمكن فصلها.

أدركنا بأننا وصلنا إلى الحمى، وأن هذا هو الحصن الحصين الذي خلفه مرادنا.

لقد شحنت وقتها وكأنه ضخ في عزمي وقود لن تثنيه عوائق الدنيا كلها.

أخرجت كاميرتي من جرابها وجعلت أقبلها وأناجيها:

- أرجوك يا كاميرتي العزيزة ... لا تخذليني هذا اليوم فأنت أهم كامرة في العالم في اللحظات التالية.

وضعتها على التشغيل وقبضت عليها بكفي الأيمن، قربنا من السور فجعلناه على يسارنا وصرنا نسير بمحاذاته نحو الشرق وبحذر شديد. لكن نباح قرود البابون أفزعنا وصارت تقفز بين الأغصان فوقنا وكأنها تحذر أحداً منا، ونحن نتمنى أن تتركنا لحالنا وتسكت ولا تفضحنا.

سرنا قليلاً فوجدنا فرجة صغيرة بين العيدان فسبقني إليها (لارو) ونظر من خلالها. فأزحت عنها (لارو) ونظرت من خلالها لكنها لم تمنحنا سوى رؤية نهاية سفح الجبل، حاولت جاهداً لأرى أي شيء فوقه لكن لم أر إلا السماء.

أشرت إلى (لارو) أن نستمر في المسير، وما هي إلا دقائق حتى رأينا فرجة أخرى فسبقني إليها (لارو) كعادته ونظر من خلالها، وإذا به يشهق ويقول:

- يا إلهي .. ما هذا.... لا أصدق ما تراه عيناي.

سحبته بثوبه بقوة ثم نظرت فرأيت العجب. ساحة جميلة مزروعاً فيها بعض الزهور والحدائق الجميلة، تتوسطها بركة لم أر إلا طرفها وعلى أطرافها بعض الكراسي البلاستيكية البيضاء .. تشرف عليها فلة جميلة مبنية من الخشب الجميل. ومسقوفة بالقرميد الأحمر.

أخذت كاميرتي وصوبت عدستها إلى الهدف. لم أر شيئاً مقدساً، لم أر آلهة ولم أر أرواحاً. صورت مناظر جميلة لكني لم أجد شيئاً متحركاً فهممت أن أغلق الكاميرا، فإذا بفتاة سمراء تلبس فستاناً زاهياً قد أقبلت من باب الفيلا إلى حوض السباحة وفي يدها سلة مليئة بالفواكه قربت العدسة إليها وهي تضع السلة على المائدة فإذا بي أرى أقداماً مقبلة، بعدت العدسة فرأيت رجلاً أنيق الملبس يرتدي روباً أزرق اللون. وهو في أحسن هندام، كنت أهمس لـ(لارو) وأخبره بما أرى.. لم يصبر.. أزاحني بقوة ومد بصره من خلال الفرجة تلك ولكن ما هي إلا ثوان حتى نظر إليّ بسرعة، وقد رسم الذهول على وجهه.. اتسعت حدقتاه.. وهز رأسه ثم عاد ينظر مرة أخرى.. وقال وهو يفرك عينه:

- أنا لا أصدق ما أرى؟

قلت:

- ماذا؟.

قال:

- ألم تعرف الرجل؟.

قلت:

- لا.. لم أتبينه ... هل عرفته؟.

قال:

- انظر ثانية وصور جيداً.

نظرت من خلال الكاميرا وصورت وقربت كثيراً لكن لم أر إلا صدغ الرجل.

قلت وأنا أصور:

- لا أعتقد بأنني رأيته من قبل.. هل عرفته؟.

فقال:

- أليس هو الكاهن؟.

سحبت الكاميرا ونظرت إلى (لارو) وقلت:

- ماذا؟ الكاهن؟.

ثم عدت أصور ثانية.. وبالفعل فقد منحني أكثر من التفاتة لتكتمل الصورة.

وفيما أنا أصور إذ بصوت سيارة يقترب من الجهة اليسرى، حاولت جهدي لأرى من القادم لكن لم يظهر.

همس (لارو) قائلاً هناك فرجة أخرى لعلنا نرى منها أكثر، لم تكن بعيدة لكنها مرتفعة بعض الشي وإن كانت أصغر، كانت المفاجأة، أننا رأينا سيارة (آدم) بطرازها بمصباحها الأيسر المكسور والصبغة المجروحة في نفس الجهة.

حاولت أن أرى السائق لكن لم يعد في حجرة القيادة أحد ولم أر إلا بنات يمررن بالقرب من السيارة متجهات إلى حيث الكاهن ثم يختفين.

يا إلهي (آدم) لم يهرب بالسيارة إذاً .. هل انضم إلى الكاهن، لا.. لا أصدق... ولكن غداً سأعرف كل شيء.

أصبح الدليل في أيدينا واضحاً وانكشف لنا المخبأ وانفضح المستور.

انحدرنا من الجبل ونحن لا نكاد نسيطر على أقدامنا من الفرحة بالنصر. مررنا بكوخ الحارس وقد استفزني الببغاء مرة أخرى ولولا خشيتي من دويّ الرصاصة أن يسمعه أحد لمكنته من رأسه.

دخلنا بحذر شديد فإذا بالمسكينة ما زالت تغط في سباتها، فاقترب (لارو) منها وجلس عند رأسها وناداها، استيقظت بعينين مرهقتين لكنها ما أن رأت (لارو) أمامها حتى شهقت وأوسعت في عينيها، وضع (لارو) كفه على فمها وجعل يهدئ من روعها. فجلست وقد جمعت رجليها إلى صدرها ويديها إلى حضنها وهي ترتجف وتنظر إلينا بخوف بالغ . سألته بصوت مرتعش:

- من أنتما؟.

- لا تخافي، نحن صديقان؟ ما الذي جاء بك هنا؟ .

فسكتت ولم تجب والرعب يهز بدنها.. أجالت النظر فيّ ثم قالت:

- أرجوكما انفذا بجلديكما قبل أن يأتي (برانا) فيقتلكما ويقتلني معكما إنه مارد شرير.

سألها (لارو):

- من هو (برانا) هذا؟.

قالت:

- إنه سيدي وصاحب هذا الكوخ، وحارس هذه المنطقة.

وجعلت تبكي وهي تقول:

- أرجوكما اهربا سوف يقتلنا جميعاً، أنتما لا تعرفانه.

قال (لارو):

- لا تخافي لقد أرحناك منه وقتلته.

نظرت إليه والرعب مرتسم على وجهها:

- ماذا؟.. أنت لا تستطيع أن تقتله، لن يستطيع أحد أن يقتله.

قلت بحماس:

- صدقاً لقد قتلناه، وهذا هو مسدسه معي، ولكن أين مفتاح السلسة هذه؟.

قالت وهي لا تكاد تصدق:

- ماذا تريدان مني؟.

قلت :

- نريد أن ننقذك ونعيدك إلى حيث تريدين.

وجهت حديثها إلى (لارو) وهي متشككة:

- إنه مع (برانا)، فإن كنت قتلته حقاً فستجده معه.

انطلق (لارو) ليحضر المفتاح، بينما حاولت أن أبحث في الكوخ عن متاع يفيدنا، وجاء (لارو) بالمفتاح ففك قيدها، فجعلت تفرك مكانه وهي تبكي وتقول:

- والآن ماذا تريدان مني؟.

قال (لارو):

- نريد أن ننقذك .

- وإلى أين ستأخذونني؟.

- إلى أهلك بالطبع.

حملنا ما استطعنا من القداح ولحافين وكيساً صغيراً من الدقيق وجبنا في وعاء بلاستيكي صغير .

وبينما نحن نسير مسرعين أخذ (لارو) يسألها لكنها كانت تبكي وتتعثر في مشيتها، وكأنها في حالة ذهول لم تستطع أن تستفيق منها.. ولم تجب على أسئلته التي كان أكثرها على ما فهمت عن الكاهن وأخته. فآثر السكوت وتركها.

* * *

وصلنا صخور الغار في الظهيرة وقد كانت الفتاة في غاية التعب والإعياء، ولم تستطع أن ترقى الصخرات الأولى، أخذنا بيديها وأصعدناها حتى وصلنا إلى الصخرة الباب فأزحناها ثم هبطنا إلى الغار وصاح (لارو) في (نارونا) فمدت الجذع فوق الصدع، ورحبت بنا وهي تنظر بشغف إلى وجوهنا واستغراب ممن معنا.. واستطاعت الفتاة أن تتجاوزه بصعوبة.

فلما أن دخلنا توقفت الفتاة وجعلت تحدق في الأميرة وتهمهم ثم صرخت المرأة قائلة:

- سيدتي الأميرة (نارونا).

فصاحت الأميرة:

- (تابينا)؟!

ثم انطلقت نحوها واحتضنتها وهي تبكي .. ثم ارتفع نشيجهما.

وضعنا كل ما معنا في مكانه في الغار، ثم جلسنا ننتظر انتهاء المقطع التراجيدي المحزن.

وبعد أن رويت من الماء البارد الزلال وجلست على الفراش الوثير الذي أحضرته من كوخ المارد، وسكت النشيج، أقبلت علينا (نارونا) بشغف تسألنا عما وجدناه.

أخبرناها وهي في غاية الدهشة والإثارة والفرح.

❊ ❊ ❊

تعتبر هذه الفتاة بالنسبة لنا من أهم مصادر المعلومات التي ستساعدنا في تحقيق العدالة، إذ لا بد أنها مكثت طويلاً في هذا الجبل سواء في قمته أم في عرضه وهذه المدة كفيلة بمعرفة ما يفيدنا في تنفيذ مهمتنا.

وبعد أن هدأ روع الفتاة وفرجت أساريرها، وبدت عليها مسحات من الجمال، قالت:

- هل تريدون أن أحدثكم بلغتنا أم بلغة إبراهيم.

قلت بالإنجليزية:

- وهل تجيدين اللغة الإنجليزية؟.

ابتسمت وقالت:

- نعم .. لقد تعلمتها من خادمتين في قصر الكاهن كن يتحدثن الانجليزية.

قلت بالانجليزية:

- وكيف وصلت إلى قصر الكاهن؟.

فقالت بلغة مكسرة:

- لا أدري .. قبل عدة أعوام لا أعرف كم هي لأني لم أعد أهتم بالزمن .. قدّموني كعروس إلى الآلهة .. آه ..كم كنت تعيسة حينها.. لقد رماني أهلي وكأنهم لا يريدونني.

ثم ضحكت بحرقة واستأنفت بسخرية: عروس للآلهة.. أتدرون لمن قدموني؟ لقد قدموني إلى أحضان الكاهن .. الرجل الطيب.. الذي يختار كل عام أجمل عروس في القبيلة.

صرخ (لارو) وقال:

- أفهم أنكن كنتن تقدمن له هو؟.

هزّت رأسها وهي مطأطئة بخجل وقالت:

- نعم.. لقد استخدمنا جواري وخدم، وكان إذا جاء بواحدة جديدة يقول لنا: بأنه سيرسل واحدة إلى أهلها ثم تذهب ولا يأتينا خبرها ولا ندري هل عادت أم لا؟ مع أن كل جديدة تؤكد أنه لم يرد أحد من السابقات إلى أهلهن. كان يفهمنا أن أهلينا يعرفون بمكاننا ويتشرفون به وأنه يخبرهم بأحوالنا حتى جاءت واحدة العام الماضي فصار الاختيار عليّ للذهاب إلى أهلي كما يقول .. فسلمني إلى الحارس الذي قتلتموه وأنزلني في الكوخ الذي أتيتموني فيه.. وحبسني هناك واستخدمني

كزوجة له لكن السلسلة لا تغادر قدمي، حتى الخروج للخلاء لا أخرج إلا وهو معي.. وكان يمنّ عليّ بقوله إنني محظوظة لأنني جئت معه وإلا كان مصيري الموت مثل مصير كثيرات ممن سبقنني..

ثم انهارت تبكي..

حاولنا تهدئتها.. والدم يغلي في عروقنا.

كان (لارو) يحاول مقاطعتها ليسألها عن أخته لكنها كانت مسترسلة في حديثها، فلما انتهت قال لها وقد نفد صبره:

- هل تعرفين أختي (ريتا)؟.

- بالتأكيد فقد كانت صديقتي وقد غادرتُ القصر وهي ما زالت فيه، كانت عنيدة جدّاً وكثيراً ما كان يحبسها الكاهن لشقاوتها .

نظر إليّ (لارو) ووجهه يكاد يتمزق من الفرح وهو يقول:

- يعني أختي ما زالت حية يا إبراهيم.

ثم وجه السؤال لها مرة أخرى:

- هل أنت واثقة من أن أختي ما زالت حية؟.

- قلت لك غادرت القصر وهي فيه، لا أعلم عنها الآن شيئاً.

ثم قام وقرب من حافة الغار لينظر جهة الجبل وهو يقول وقد خنقته العبرة:

- أختي ما زالت حية، سآتيك يا (ريتا) غداً وأقتل الكاهن أمامك.

ثم عاد وقد غطى الغضب موجة الفرح على وجهه ودمعة تسقط من وجنته:

- لا أستطيع الانتظار، أريد أن أذهب لأنقذ أختي.

أشرت له بالجلوس وأنا أتحدث إلى الفتاة. قلت لها:

- (تابينا)... من أين تصل التموينات إلى القصر؟.

- هناك في الخلف طريق ممهد ومحجوب بأشجار كثيفة يبدأ من القصر ولا أدري إلى أين ينتهي، لكن التموينات تصلنا من المدينة كل أسبوع بكل ما يريده الكاهن من أطايب الأكل والكماليات.

قلت:

- ومن الذي يقوم بحراسة القصر؟.

- سمعنا بأن لدى الكاهن أكثر من عشرة حراس كلهم جاؤوا من مناطق مختلفة يقوم بعضهم بحراسة الجبل مثل (برانا) وبعضهم

يقوم بحراسة القصر من داخل الفناء. أما داخل القصر فلا يعيش معه إلا النساء ويزوره بعض أصدقائه من التجار الذين يشترون منه الذهب والألماس.

قلت لها:

- وهل تعتقدين بأنه سيكتشف مقتل (برانا) هذا اليوم؟.

- لا ... لا أعتقد بأنه سيكتشف الأمر قبل مضي أربعة أيام أو أكثر، لأن (برانا) صعد بالأمس وجلب التموينات من القصر ولن ينتظر عودته إلا بعد انتهاء أسبوع كامل. لكن أخشى أن يفقد صوت بوقه خلال اليومين القادمين.

٧١

مكثنا ذلك اليوم ونحن نتنعم بالخبز والجبن الذي لم أذقه منذ أيام ..

كان علينا أن ننجز عملية الاقتحام سريعاً قبل أن يكتشف الكاهن قتل الحارس وهروب الفتاة تحسباً لزيادة الاحتياطات الأمنية التي سيضربها على معقله.. تداولنا الأمر فرأينا أن علينا أن نهجم في الوقت الذي يكون الكاهن في القصر ويكون معنا عدد من الرجال لنسيطر على الوضع إن وجدنا مقاومة، لكن من أين لنا بالرجال؟.

ووصلنا إلى رأي مفاده وجوب إطلاع الأمير (نارون) على الأمر بالصور ليرسل لنا مدداً يساعدنا على الهجوم وتخليص الفتيات واعتقال الكاهن وهو متلبس بجريمته. ولكن من الذي سيقوم بإبلاغه.

أنا لست مؤهلاً لهذه المهمة لأنني في عداد الموتى، وليس لنا إلا (لارو) ولكن كيف يمكنه الوصول إلى الأمير الذي لا يستقبل أحداً من عامة شعبه في القصر مع ما يتمتع به من تكبر عليهم كما يقوله (لارو).

فقررت (نارونا) أن تكتب له خطاباً يستحثه في مقابلة هامة تخص أخته.

فكتبت له على قطعة من الجلد بمداد شجر حولنا قالت فيه على لسان (لارو):

- أرجوكم يا سيدي أريد أن أتحدث إليكم في أمر خطير جدّاً يهمكم.

ثم قالت له:

- أعط هذا الخطاب الحارس (سماوا) فهو حارس ذكي وشريف. وقل له: بأن يوصل هذه الرسالة إلى الأمير لأمر خطير، فإذا استدعاك الأمير فأخبره بخبرنا. وأره الصور التي في الكاميرا.

قال (لارو) وقد بدا على وجهه القلق:

- وهل سيصدقني الأمير؟.

- قالت:

- إذا عاد الحارس بالرفض فقل له: قل للأمير بأني رأيت الأميرة في المنام وأوصتني بأمر أوصله لك.

أعطيته الكاميرا، ثم شرحت له كيف يقوم بتشغيلها عند الأمير، وأوصيته بأن يخبئها جيداً حتى يصل إلى الأمير ففيها حياتنا أو موتنا، ونجاحنا أوفشلنا.

لم تأت الساعة الرابعة حتى توجه (لارو) مسرعاً إلى القبيلة يسوق أمامه الأمل الكبير في تحرير أخته الحبيبة والانتقام من الكاهن الذي أخذها منه.

انتظرنا طويلاً، وأصبح الوقت على نفوسنا ثقيلاً جدّاً، لم نتحدث فيه إلا قليلاً، ولم نخرج خشية أن يكون قد اكتشف أحد خبرنا.

وغربت الشمس وأظلمت الدنيا فلما أشرفت الساعة على التاسعة مساءً ونحن في غاية القلق من تأخر (لارو) سمعنا نحنحة السر وهبط إلينا (لارو)، قفزنا جميعاً نحوه عند مدخل الغار، وقمنا نستجوبه بلغتين فجلس قبل أن يدخل الغار وهو يلهث.. أوقدت المصباح وسلطته على وجهه الذي ظهر عليه الإجهاد لكن مع الإجهاد شيء آخر قرأته فيه.. إنه الإحباط.. والغضب.. قام إلى الجمر يتدفأ... بادرته (نارونا) بلطف شديد وتودد، وهو يلتقط أنفاسه:

- ما هي الأخبار أيها البطل؟ .

نظر إليّ بتجهم وقال:

- هه.. الأخبار؟ .. إنهم هكذا.. لا يرون الناس شيئاً ولا يحترمونهم إلا إذا احتاجوا إليهم.

فقلت والقلق يزداد بي:

- ماذا تقصد؟ أوضح.

قال بنبرة غضب وهو يتحاشى أن ينظر إلى (نارونا):

- إنهم هؤلاء السلاطين.. لا يروننا نحن الشعب إلا كأغنامهم.. حتى إذا تأزمت بهم الحال عادوا إلينا وامتدحونا وتوددوا إلينا.

قلت بغضب:

- تبّاً لك، أوضح ... ماذا تقصد؟.

قال بتأثر زائد:

- أقصد (نارون) يهينني في قصره العاجي ويعاملني كلص، وأنا أقوم بخدمة أخته، وهذه أخته لأنها تحتاجني تعاملني كبطل من الأبطال، حتى إذا انتهت المهمة تنكرت لي.

قلت:

- بل أنت بطل يا (لارو).. لكن ما الذي حصل؟.

فقال والغضب بادٍ من نبرات صوته:

- لقد وصلت إلى الحارس وأعطيته الرسالة ومكثت طويلاً أنتظر، فلما أذن لي دخلت على الأمير، فأخبرته بالخبر فأبدى اندهاشه وتعجبه ثم أخرجت الكاميرا وأدرتها فلم تشتغل .. حاولت فلم أتذكر كيف علمتني، لقد نسيت.. فنظر إليّ وقال: أهذه حيلة تريد أن تلعبها معي ... فأقسمت له بأنني صادق.. فأخذ الكاميرا من يدي وحاول أن يديرها لكنه لم يعرف فوضعها بجانبه غاضباً ثم نظر إليّ.. وقال: أين هما الآن، فأخبرته بالمكان، فقال: هيّا انصرف الآن وسأتدبر الأمر. فلما انصرفت دعاني وقال: أتعلم؟! لو اكتشفت أنك تخادعني، أو لم تتصرف كما يجب ماذا سأصنع بك؟ سأقطع لسانك ثم أرميك للحية المقدسة..قلت له: سيدي ستجدني صادقاً لكن أرجوك استعجل في إرسال المدد الآن قبل أن يعود الكاهن. ويكشف أمرنا. فأمرني بحزم أن أنصرف دون أي شكر أو تقدير لما فعلته من أجل أخته.

قلت له:

- وهل فهمت منه أنه سوف يرسل لنا أي مدد؟.

- لا أدري .

احترت في أمري فأنا و(لارو) لن نستطيع أن نقوم بالهجوم وحدنا.. معنا مسدسان لكنهما محدودا عدد الطلقات و(لارو) لا يستطيع أن يستخدم أحدهما بكفاءة.. ولا بد أن هناك عدد من الحراس سيتغلبون علينا.

قالت (نارونا) بصوت خجول:

- آسفة يا (لارو) .. حقيقة أنا مقدرة لك كلما صنعته من أجلي، وأشكرك عليه ولن أنسى موقفك البطولي معي. وسوف يقدره أبي وأخي بعدما تنتهي هذه الأزمة.

سكت (لارو) ولم يـردّ عليها، لكن يبدو أنـه غضبان جـدّاً من أخيها.

أشرت عليهم بالخلود إلى النوم وسنرى ما سنقوم به يوم غد الذي يعتبر اليوم الأخير هذا الأسبوع للكاهن في القصر كما تقول الفتاة .. ولو فوّتنا تلك الفرصة فإنه يتعين علينا الانتظار خمسة أيام أخرى حتى يعود، هذا إذا لم يكشف أمرنا.

جعلت أتقلب على الأرض التي افترشتها ولسعات البرد الذي سببه المطر أزعجتني رغم أنني حينما تظاهرت بالنوم جاءت (نارونا) التي تنام مع الفتاة في آخر الكهف فلحفتني باللحاف الذي جئنا به من عريش الحارس والذي أعطيناها إياه.

دفئت قليلاً فهجم النوم عليّ قبل أن أصل إلى قرار..

بزغ الفجر وبينما كان الجميع في سبات عميق شرعت أبتهل إلى الله وأدعوه أن ييسر أمورنا.. ويعيننا على تجاوز هذه الأزمة، خرجت

إلى طرف الصخرة التي تغطي الغار من الأسفل كان الغسق يخيم على الأرض والضباب يملأ الفضاء..

لم أصدق عيني فقد رأيت بين الضباب فارساً على صهوة جواده وخلفه ستة من الرجال المسلحين بالبنادق الرشاشة ويلبسون بدلاً عسكرية خضراء مموهة يسيرون متفرقين وينظرون إلى الصخور التي فيها الغار..

خفضت رأسي وعدت من فوري لأوقظ (لارو) وأنا أعمّر مسدسي الاثنين. وأبقيت مسدس الحارس في يدي وأرجعت الآخر في الحزام.

رأتني (نارونا) فقالت:

- ما وراءك؟.

قلت:

- هناك رجال ومعهم فارس على صهوة جواده.

فقامت وهي تضحك بفرح وتقول:

- هذا (نارون) لا يوجد خيل إلا عندنا.

فاستيقظ (لارو) وأمسك بثوبها وقال اجلسي، ربما هم من خدم الكاهن.

فلما جلست سمعنا صوتاً ليس غريباً عليّ يناديني:

- إبراهيم ... إبراهيم ... أين أنت؟.

عرفنا جميعاً الصوت، إنه صوت (نارون) .. ما هذا؟ لأول مرة أعرف أن القبيلة تملك سلاحاً نارّياً.

ولكن عندما تسيطر الحاجة تظهر الوسيلة.. الإنسان قد ينسى كل شيء إلا ما يبقيه آمناً.. رجعت وارتقيت الصخرة لأجيبه لكن (لارو) صرخ فيّ:

- انخفض يا إبراهيم .

فانخفضت والتفتُّ إليه مستفسراً، فقرب مني متحفزاً فقلت له:

- ما بك إنه (نارون).

قال:

- وإن كان (نارون)! وما يدريك أنه جاء ليقتلك.

قلت متعجباً:

- ولم يقتلني؟! لم أفعل ما يوجب قتلي.

قال:

- ربما اعتبر ما فعلته تدخلاً في حياة الأسرة السلطانية وقداستها.. أقول: ربما.

وإن كنت غير مقتنع تماماً باستنتاج (لارو) إلا أن الخوف تملكني، فهو يفكر بنفس العقلية التي يفكر بها ابن بلده الأمير .. ربما.. ولكن فلأستعد للمقابلة والدفاع عن نفسي.

بقيت مكاني وأنا أترقب.. وجاء النداء الثاني مرة أخرى.

- إبراهيم.. أين أنت؟.. هل أنت هنا؟.

لم تتمالك (نارونا) نفسها فخرجت من بيننا، حاولت أن أمسكها.. لكنها انطلقت مسرعة وأشرفت عليهم من فوق الصخرة وهي تصيح وتبكي وتلوح بيديها:

- (نارون)... (نارون).

استسلمت للقدر.. ووقفت مكاني مع (لارو) ومسدسي في يدي.. صعدت (نارونا) إلى أعلى الصخرات لتهبط إلى أخيها ونحن نراقب الموقف من فوق عن كثب.

وقد ركزت بصري إلى كل فوهة بندقية من البنادق الست في وقت واحد خشية أن تصوب إلى رأسي الأعزل.

نزل (نارون) من فوق حصانه واستقبل أخته وهو يركض نحوها وهي تركض إليه.. تعانقا طويلاً.. ولا بد أن هناك بكاءً لا أسمعه.. أمسكها بعضديها وجعل يتفحص وجهها بعينيه.. ثم قبل جبينها.

ثم التفت إلى جهتنا وهو ينادي بصوت عال:

- إبراهيم.. انزل.. أين أنت؟.

نظرت إلى (لارو) نظرة استشارة فمط شفته بأن لا أدري..وقال:

- الأمر يعود إليك.

توكلت على اللّه، وغرست مسدسي في حزامي من الخلف، وعلى مرأى من (تابينا) و(لارو) هبطت إليهم وأنا شديد الحذر.. ولما وصلت الأرض شعرت بـ(لارو) وقد لحق بي برمحه الطويل.

انقض عليّ (نارون) فاحتضنني وقد بدت علامات الفرح الجارف على وجهه وعينيه التي أغرقتها دموعه.

أمام هذه المشاعر الجياشة غارت مشاعري الإنسانية فخنقتني العبرات، أراد أن أتحدث فلم أستطع خلال ثوان.. فسدد لكمته على صدري يداعبني لكنه آلمني فنسيت أنه الأمير أمام رعيته فسددت لكمة بلكمة فأمسكني يصارعني وهو يقهقه والرجال و(نارونا) يقهقهون.

تمنيت أن يحتضن بطله الوطني (لارو) لكن نظرات الاحتقار نحوه نغصت عليّ فرح اللقاء.

فقلت للأمير:

- هذا (لارو) أشجع بطل رأيته في حياتي، لقد أنقذ معي الأميرة وأنقذ حياتي مرتين.

نظر إليه الأمير بابتسامة تكبر بغيضة وهزّ رأسه ولم يصافحه. ثم التفت إلى حراسه فأمرهم بأن يعتنوا بالحصان وأمرنا بالصعود لرؤية الغار. فصعدنا إليه معه إلا (لارو) بقي في الأسفل، فأعجبه المكان وهو يقلب الأواني ويمسح الفرش.

جلسنا وقربت أخته والتصقت به، قال الأمير:

- لا تعلمان كم أنا فرح بنجاتكما.. لقد حطمني الحزن بفراقكما.. ولكن كم هي الآلهة كريمة.

صرخت في وجهه مداعباً وغاضباً من داخلي:

- كفى.. كفى.. ها هي آلهتكم المزعومة ماذا صنعت بكم؟.. وخدامها كهانكم الذين استعبدوكم .. .. لا يوجد إلا إله واحد في السماء.. اشكره من قلبك.

تغيرت ملامح وجهه ثم نظر إلى جهة الجبل وكوّر قبضته وهزها إلى الأسفل.. ولم يزد على التأوه.

حضر (لارو) وسلّم علينا فقلت تعزيزاً له أمام الأمير مرة أخرى:

- أهلاً بصديقي ... اجلس هنا يا بطل.

نظر إليه الأمير بطرف عينه وأمره بجفاء:

- انزل إلى الحراس وأحضر الكاميرا .. هيا بسرعة.

تغير وجه (نارونا) حرجاً، بينما خرج (لارو) وعلامات الغضب تكاد تفجر الدم في وجهه.

قالت (نارونا) لأخيها بتودد:

- أرجوك عامله بلطف فلما زلنا في حاجة إليه.

غضبت من كلامها أشد من غضبي من تصرف أخيها نفسه، لقد صدق حينما قال: بأنهم لا يتوددون إليهم إلا عندما يحتاجونهم. فقلت:

- ماذا؟ تعنين أن يكون معه لطيفاً ما دمتم في حاجته فقط .. هل هذا هو معيار تعاملكم مع شعبكم؟.

ضحك الأمير وقال:

- لا عليك يا صديقي أغلب الشعوب تدرك بأنها تتشرف بخدمة سلاطينها وما يقدمونه لهم ما هو إلا جزءاً بسيطاً من حقهم عليهم.

ازداد غضبي وتأكدت لي توغل هذه النفسية اللئيمة في نفوس أمثال هؤلاء فقلت غير عابىء به:

- يا لشقائكم.

قال الأمير وقد بدا على وجهه الجد:

- ماذ تقول؟!.

قلت:

- أقول يا لشقاء هذه الشعوب التي تدس أنوفها في وحل خدمة سلاطينهم لإرضائهم، بينما لا يزيد سلاطينهم إلا إرغاماً وإذلالاً لتلك الأنوف.

نظر إليّ الأمير ولم يعلق، لسبب واضح هو: أنه ما زال في أمس الحاجة لي.

جاء (لارو) بالكاميرا فأعطانيها، قمت بتشغيلها للأمير، وأريت الأمير الصور المتحركة الأولى والتي صورت في الفرجة الأولى ثم في

الفرجة الثانية، فجعل يزفر بشدة وكأن الدم استحال وقوداً في عروقه وهو ينظر ويقول:

- يا له من وغد ... يا له من مجرم.

لكن انطفأ نور الكاميرا.

مدها لي وقال:

- انطفأت.

أخذتها وجعلت أحاول إعادة تشغيلها لكن البطاريات قد انتهت فقلت:

- يا للحظ لقد انتهت البطاريات.

ابتسم وقال:

- لا بأس سنراها مع الكاهن في القصر.

أشار لي بأن آمر (لارو) بالخروج لكي ندير خطة الهجوم، فهززت رأسي أن لا وسيبقى معي.

خططنا للهجوم وتعاهدنا أن لا نعود إلا بالكاهن حيّاً وتخليص الرهائن.مهما كانت التضحية.

❋ ❋ ❋

أسفر الصبح وبدأت الشمس تخرج طرف رأسها على استحياء لترسل أشعتها الحانية أمامها فتنعش الآمال في نفوسنا المتعطشة لتحطيم أغلال الظلام..

تحلقنا نحن والرجال وكانت نفس (لارو) منكسرة وزفراته متلاحقة، بل لقد كانت عيناه محتقنتين بالدمع، مما يشعر به من جفاء الأمير له، فهمست له:

- لا يهمك صنيعه هذا فما هي إلا عجرفة فارغة. فقط أثبت وجودك وسوف تفرض عليه احترامك.

هز رأسه غاضباً وكأن العبرة تخنقه وقال بصوت خفيض:

- صدقني نحن الذين صنعنا فيهم الدكتاتورية بجبننا وجهلنا. ولكن من أجل أختي لن أنصرف حتى أحررها منهم، فهم الذين صنعوا الكاهن وسلطوه على أموالنا وأعراضنا.

وتركني وانصرف ليقف بعيداً يراقب ما نصنعه، ولم يكن حزني عليه بأقل من غضبي من أجله وذلك لتصرف الأمير اللئيم نحوه.

كانت الخطة تقضي باقتحام الجبل من ناحية الطريق الذي سلكته أنا و(لارو) حيث الحارس الميت لكي نأمن من المقاومة أو إطلاق أبواق الإنذار.. والقبض على الكاهن في قصره المقدس وعلى من نجده من الخدم والحراس أو قتلهم إذا واجهتنا مقاومة بالنيران.

أما الفتاتان فقد أمر الأمير اثنين من الرجال المسلحين باصطحابهما إلى القصر.

وبدأ التنفيذ...

أراد الأمير أن يصطحب حصانه معنا لكني رفضت ذلك خشية أن يصهل فيسمعه الحراس مع وعورة الطريق، كما أنني لم أستسغ ركوبه ونحن نسير على أقدامنا، فأركب أخته عليه ورجع مع الحارسين.

مررنا بجثة الحارس وقد التفت عليها سراب الذباب والحشرات وعيناه جاحظتان بشكل مرعب.. توقف عنده الأمير قليلاً متعجباً من ضخامته، فقلت:

- لقد كان (لارو) شجاعاً.

هزّ رأسه موافقاً وقال:

- فعلاً لقد كان شجاعاً، لكن لولا أنت لما استطاع أن يتغلب عليه.

فقلت ساخراً:

- صدقت فلولا أنني أمسكت يديه برقبتي لما استطاع أن يرميه برمحه.

إنها عقدة...مجرد عقدة تفوق الأجنبي عندهم.

تركناه وتوجهنا إلى السور الخشبي الذي انتصبت أعواده كالحراب.. وقف الأمير أمامها متعجباً من تماسكها وقوتها وحسن بنائها.. فكرنا في اقتحامها والتعاون على صعودها، لكن (لارو) جرب فلم يستطع وهو أكثرنا خفة ونشاطاً

وأخيراً استقر الرأي على أن نتسلل غرباً.. إلى حيث المدخل الموازي للمعبد وإن كنا نعتقد بأن ذلك سيستغرق وقتاً طويلاً وربما تعترضنا الكثير من الصخور والشعاب..

أشرت إلى أحد الحراس فلما أقبل إليّ أمرته أن يعطيني الرشاش ويأخذ المسدس فالتفت إلى الأمير فأشار له الأمير بأن يعطيني إياه مع حزام مليء بالرصاص، فتمنطقت به، وشعرت حينها وكأني أحد الأبطال الشجعان الذين يمثلون أفلام الأكشن في Holy wood. أمسكت بوسط البندقية وأشرت لهم بمواصلة المسير.

سرنا نتخلل الأشجار وكلمة ونداء السر الذي بيننا صفير معين كصفير طائر.. مررنا بالفرجة التي صورنا منها فرأينا المسبح والكراسي ولم نر أحداً.

تركناها وواصلنا المسير بمحاذاة السور، فإذا بفتحة تزيد على المتر طولاً ولا ترتفع أكثر من عشيرين سنتيمتراً، حاول (لارو) عبثاً أن يدخل منها فتركناها ومضينا قدماً.

وصلنا إلى شعب صغير ما زال رطباً بماء السيل وقد جرف الماء التراب والأحجار من تحت السور، كانت الفتحة مرتفعة تسمح بدخول الرجل من تحتها، تقدم أولاً (لارو) وقال:

- دعوني أنا أستكشف أولاً.

ثم انزلق ودخل ولحظات وإذا هو يكلمنا من الفتحة ويهمس أن ادخلوا.

فتبعناه واحداً واحداً.

سرنا في الشعب داخل السور أكثر من خمس دقائق ولا تلوموني فالوقت بالنسبة لي آنذاك كان طويلاً جدّاً.. وفي كل خطوة كان يشتد وجيب قلبي خوفاً وإثارة مما سنقابل.. كانت الساعة تقترب من العاشرة صباحاً . ثم استوت الأرض.. فبقينا متمددين نراقب ما الذي يدور في الساحة..

كان المنظر رائعاً جدّاً.. الحدائق الصغيرة متناثرة وقد زينت بأحسن الزهور. التي بدا عليها إتقان الجنايني الذي نسقها بإبداع محترف ...

انتظرنا قليلاً.. فإذا بعامل يسقي الزهور التي تحيط ببركة رائعة تناثرت حولها الزهور والورود.. وارتصت حولها بعض الكراسي وطاولة بيضاء مظللة..

يشرف عليها منزل خشبي جميل جدّاً ذو طراز غربي فريد.. بل لقد رأيت أنواعاً رائعة من المصابيح الكهربائية والتي لاحظت عليها أنها كلها تضيء نحو الأسفل فعلمت أنهم يحصرون أن لا يرى ضوؤها من بعيد..

وفي التفاتة مفاجئة رأى الجنايني بعضنا فصاح صيحة غريبة. ثم هرب نحو خلف الفيلا فأمرت رجلين أن يلحقا به. انبطحت خلف ساقية، وأشرت إلى الأمير و(لارو) ليختبئا خلف صخرة قريبة، ولم أدر أين تترس الرجلان الآخران.

وفجأة خرج ثلاثة مسلحون ببنادق رشاشة من تلك الغرف ثم أطلقوا النيران نحونا بكثافة.

فأطلقت النار عليهم من بندقيتي فسقط أحدهم في البركة، بينما واصل الآخران إطلاق النار وهما يتراجعان إلى الخلف.

استدار أحدهما ليهرب فقتلته هو الآخر. بينما هرب الثالث ليحتمي بالفيلا..

وفجأة انهمل رصاص مسدس من الدور العلوي من الفيلا نحوي، فجعلت أرمي نحوه وأنا أهرب إلى الصخرة التي يختبئ خلفها الأمير و(لارو)، ولم أشعر إلا وقد ثقلت رجلي، نظرت إليها فإذا الدم يثعب من فخذي، لم تكن الرصاصة نافذة بل مرت بالجلد فاخترقته وخرجت منه.

شققت كم قميصي الأيسر ثم ربطت جرحي به ثم انطلقت مسرعاً لألتف خلف الفيلا وألحق برجالنا الذين أسمع أصوات رصاصهم يدوي هناك.

وعند سكون الرصاص صرخ رجل من صوب الصخرة التي يختبئ فيها الأمير وهو يقول بعصبية:

- هيا أيها الحمقى ... ألقوا سلاحكم وإلا قتلت صاحبكم.

عدت سريعاً إلى حيث أراهما وإذا هو رجل طويل أسمر ممسك بعنق الأمير من خلفه ويهزه بقوة وقد سلط مسدسه على رأسه. وهو يقول:

-هيا أيها الجبان مرهم فليلقوا أسلحتهم وإلا فجّرت رأسك.

نظر الأمير إلى وجه الرجل فوقه وقال له بتذلل:

- أرجوك لا تقتلني .. سيلقي الرجال أسلحتهم .. أرجوك.

اختبأت خلف شجرة وأنا أرقبهما وقد صوبت بندقيتي نحوه، لكني خشيت أن أخطئ رأسه فأقتل الأمير أو يقتله هو. بينما كان حارسا الأمير يقفان غير بعيد وهما يصوبان بندقيتيهما نحوه.

- هيا ألقيا السلاح أيها الوغدان سوف يقتلني، إنه جاد.

كان صوت الأمير مرتجاً.

ألقى الرجلان السلاح ورفعا أيديهما.

بدا لي أن المهمة قد انتهت وتحطمت الآمال. ولم يبق غيرهما إلا رجلان لا أدري أين اختبأا أو تترسا.

وصاح على أحدهما ليتقدم نحوه، تردد الرجل خائفاً فرفع مسدسه وأطلق عليه النار ولم تسكت الرصاصة حتى سمعت صرخة مدوية ورمح (لارو) قد نفذ من جانب الرجل الأيمن إلى جانبه الأيسر فسقط على الأمير الذي سقط هو بدوره على الأرض.

خرج الأمير من تحت الرجل وقد غشيه الكثير من دمه في الوقت الذي وقف (لارو) بعينين كأن فيهما الشهب على صدر الرجل ونزع رمحه بشراسة مخيفة.

ثم نظر بابتسامة ساخرة في الأمير ثم مط شفته السفلى وأشار إلى القتيل وهو يهز رأسه. ذبلت عينا الأمير وهو ينظر إليه بشيء من الضعف.

تذكرت المسدس الذي يطلق من الفيلا فالتفت حذراً إلى نوافذها فإذا بي أرى رجلاً خلف الزجاج اختبأ سريعاً حينما رآني أنظر إليه.

انطلقنا إلى باب الفيلا، فأقبل رجالنا الثلاثة معنا، فرحين بنجاتهم ومنتشين بالنصر الذي لم يكتمل بعد، أردنا فتح الباب فلم ينكسر، فأمرتهم بالابتعاد ثم نثرت أكرته بالرصاص ثم تجمع معي الرجال نرفسه فانخلع من مكانه وسقط على الأرض.

أوقفنا أحد الحراس عند الباب ليقوم بحراستنا من الخلف.

كان المنزل من الداخل قمة في الذوق وروعة في الجمال. فيه من الستر الفاخرة والتحف النادرة والسجاد النفيس ما يذهل.

دخلنا في صالة واسعة يدور في وسطها سلم رخامي جميل ينتهي إلى ممر علوي تفتح عليه بعض أبواب الغرف التي ترى من الأسفل.

حينما دخلنا المنزل لم يتمالك (لارو) نفسه فجعل يصرخ وينادي بصوت قوي جدّاً.. تيرانا.. تيرانا.

صوّبت مسدسي إلى حيث الغرف بينما كان المسلحان الآخران على أهبة الاستعداد.

صرخت بصوت عال:

- اخرج أيها الكاهن العظيم.

خرج رجل أبيض أنيق من أقصى اليمين في الدور العلوي وهو مرتد بيجامة فاخرة وقد وضع كفيه في كمي روبه وهو ينظر إلينا بكبرياء ويقول بتبجح:

- حسناً .. حسناً ... من هم ضيوفنا هذا اليوم؟ .... لقد ارتكبتم خطأً فادحاً باقتحامكم منزلي وقتل رجالي وأنا أتمتع بالحصانة الدبلوماسية، في ثوان ستجدون جيشاً يطوّقكم ويقتلكم جميعاً.

من عند الباب كان هناك رجل يتكلم بصوت وانفعال عال ويقول:

- من أنتم أيها الأبطال؟.من أين أتيتم؟. أنا صديق، مروا حارسكم يدعني أدخل.

لم يكن الصوت غريباً علي، إنه صوت (آدم)، التفتُّ نحوه فإذا هو (آدم) فعلاً. صرخت:

- (آدم) هل أنت هنا؟.

يضحك الرجل الأبيض ويقول:

- هل عرفتهم أيها الجبان؟.

قال له (آدم):

اخرس أيها الشاذ.

ثم انطلق (آدم) إليّ يحتضنني. ولكنه في لحظة أسقطني إلى الأرض على صوت رصاصة مسدس، فالتفتُّ إلى الرجل فإذا هو يتدحرج على السلم وقد سقط من يده مسدس قد رمى منه رصاصة لم تصب أحداً. فقد رماه أحد حراسنا فور تصويبه مسدسه نحونا.

سألته متعجلاً:

- ما الذي أتى بك هنا؟.

- اختطفوني بسيارتي ثم سجنوني هنا، وسخروني لخدمتهم تحت تهديد السلاح. وهذا الذي قتلتموه أحد تجار الذهب والألماس من أصدقاء الكاهن القدماء.

تركنا (لارو) وانطلق إلى الأعلى وهو ينادي بصوت مؤثر جدا:

- تيرانا...تيرانا ..

جعلت أناديه ليرجع حتى لا يقتله أحد هناك لكنه كان في شدة انفعاله.

وارتفع صوت (لارو) وهو يلعن ويركل باباً مغلقاً في الدور العلوي.

وينادي ويصرخ بأعلى صوته:

- أين أنت أيها الجبان؟ أين أنت؟ أخرج علينا .. لماذا تختبئ كالنساء؟.

وفيما كانت أبصارنا مصوبة نحو صوت (لارو) إذ خرج الكاهن من باب تحت السلم وهو مرتدٍ بدلة فاخرة وفوقها روب رمادي أنيق، وعلى وجهه علامات الرعب والاستسلام .. ناديت (لارو):

- كفى يا (لارو) الكاهن هنا.

وقف الكاهن أمام الأمير وجثا على ركبتيه وبقي صامتاً، والأمير ينظر إلى رأسه واجماً لم يحر بكلمة واحدة. كان الموقف مأسويّاً لكليهما.

هبط (لارو) من الدور العلوي كالبرق ثم انقض على الكاهن يخنقه وهو يقول:

- أين أختي تيرانا أيها المخادع؟ أين أختي ... قل لي بسرعة وإلا قتلتك.

قام الكاهن ونزع يد (لارو) من حلقه بقوة ودفعه وهو يقول بصوت مرتعش:

- أطلقني أيها الحشرة ... كيف تجرؤ على أن تفعل هذا بي أمام الأمير؟ ثم أنا لا أعرف أختك تيرانا هذه.

انطلق (لارو) نحوه مرة أخرى وأسقطه أرضاً وهو يخنقه ويقول:

- يجب أن تخبرني أيها الجبان عن أختي وإلا أقسم أن أقتلك.

صرخ (نارون) فيه وأمسك بيده ليفكه عنه لكن (لارو) أفلت يده منه وعاد يخنق الكاهن، غضب الأمير ونظر إلى أحد حراسه ليتدخل فحلت بينه وبينه ونظرت في الأمير معاتباً ومحذراً.

صاح الكاهن وقال:

- لقد ماتت أختك .. ماتت أيها الحشرة وسوف تلحق بها أنت.

سمعنا صراخ نساء في الدور العلوي فأفلت الكاهن وقام بعصبية شديدة وانطلق نحو الصوت، جلس الكاهن وهو يسعل ويمسك برقبته.

أمرت (آدم) أن يقطع لنا حبلاً من حبال الستائر المتدلية، ففعل بسكين معه فلما جاء بها أدرت يدي الكاهن خلف ظهره ثم ربطتهما بشدة وهو يبادل الأمير نظرات عتاب والأمير يتحسر بألم لم يستطع أن يخفيه عنا.

وعاد (لارو) يكلمنا من فوق السلم بنبرة حزينة مؤثرة تخنقها العبرات وهو يقول بهدوء:

- لقد قتلها اللعين. ابتعدوا عنه .

قلت وقد غصتني العبرة من أجله:

- أنا حقّاً آسف جدّاً يا صديقي، سيلقى اليوم جزاءه الذي يستحقه عن أختك وعن غيرها.

ضحك بسخرية ويقول:

- من تعتقد أنه سيحكم عليه؟ ... السلطان؟ .. لا يا صديقي ... لم يعد هناك سلطان لأنه لم يعد هناك كاهن .. فكل منهم لا يوجد إلا بالآخر.

نظر إليه الأمير بحدة.

فقلت له:

- اهدأ يا صديقي وانزل علينا لنر، لا تفسد ما فعلته في غمضة عين.

- نزل بتثاقل ومر على رمحه الملقى على السلم فحمله وهو يهز رأسه وقد احمرت عيناه حتى كأنهما جمرتان متوقدتان، وأنا أراقبه بشدة خشية أن يطلقه على الكاهن أو الأمير.

أخذ الأمير بندقية أحد حراسه ووجهها إلى (لارو)، وقال بصوت مرتج:

- انزل يا (لارو) ولا تحدث أي مشكلات وإلا ستلحق بأختك.

اشتد بي الغضب من هذا التصرف الأرعن من الأمير، فصرخت في الأمير:

- تباً اخفض سلاحك يا (نارون)، نحن لم ننته من مهمتنا بعد وأنتم تتقاتلون؟ ما هذه العقول؟.

قال الأمير:

- ألا ترى هذا الحشرة ماذا يفعل؟.

غضبت فرددت عليه:

- حتى أنت تقول له حشرة مثل كاهنك، يا لكم من قوم بؤساء، اخفض سلاحك.

ثم وجهت حديثي إلى لارو وأنا أستعطفه: وأنت يا (لارو) هيا دعنا نعود.

نزل (لارو) متثاقلاً حتى وصل إليّ وقد اغرورقت عيناه بالدمع ثم احتضنني وهو يبكي ثم نظر في عينيّ وقال:

- أشكرك يا صديقي ... انتهى كل شيء ... انتهى كل شيء .. وأتمنى أن ألقاك مرة أخرى ولكن بعد أن أشفي غليلي.

أمسكت بثوبه لكنه انصرف وهو ينظر إلى الأمير بشزر ثم خرج يركض من الباب.

جعلت أناديه: (لارو) .. (لارو) .. أرجوك عد. لكنه اختفى.

التفتُّ أبحث عن (آدم) فاختفى هو كذلك.

أقاموا الكاهن الرجلان بإبطيه.. لكنني أشرت على الأمير بأن ينتظر قليلاً فربما هناك بعض الحراس.. يترصدون لنا.. فنظر إليّ الكاهن بوجه مظلم وقال:

- إن جنودي في كل مكان سيقتلونكم ويرمون جثثكم للكلاب.

فابتسمت بسخرية وقلت:

- لن يكون ذلك قبل أن تكون عشاء للحيّة هذه الليلة أو ليلة غد، وأصب بنفسي حساءها المفضل على بطنك المنتفخ هذا.

ثم ضحكت ضحكة عالية ليس من أجل إغاضته ولكن من أجل أن أشفي غليلي منه تلك اللحظة.

وفيما نحن ننتظر إذ دخل علينا (آدم) وفي يده بندقية ويسوق رجلاً أمامه.. حتى إذا جاءنا.. فرحت بـ (آدم) ثم أخذت الرجل جانباً وقلت له محققاً:

- إنك تعمل ضمن عصابة خطيرة هنا، ومجرد تزويدنا بأخبار مفيدة سيكون ذلك في مصلحتك وتكون شاهداً يطلق سراحك..

كان الرجل يرتعد من الخوف بل إن صفار الموت كسا وجهه المرتعب..

نظر إليّ وقال:

- أنا المسئول عن مولد الكهرباء فقط يا سيدي وليس لي أي دخل فيما يقومون به، واسأل يا سيدي وسوف أجيبك بكل صدق..

قلت:

- أين الحراس؟.

قال:

- قتلتموهم كلهم يا سيدي.. إلا ثلاثة في سفح الجبل فيما أظن لا أكثر..

قلت:

- وأين هؤلاء الثلاثة؟

قال:

- أحدهم في سفح الجبل الجنوبي (يقصد الرجل الذي قتله لارو من قبل) والآخر في الجهة الشمالية والثالث عند منعطف الطريق الجبلي وهو بعيد.. لكن لا أعتقد يا سيدي أنهم سيغامرون بحياتهم وربما هربوا بعدما سمعوا إطلاق النار.

قلت:

- إنك كاذب ألست الذي كنت تطلق النار مع صاحبيك اللذين قتلا؟.

- بلى يا سيدي لكنني استسلمت لكم.

أمرت الحارس أن يدير كتافه ويلحقه بكاهنه.

استأذن (آدم) وانصرف مرة أخرى، فظننت أنه سيجلب لنا آخر مثله.

لم نجد من النساء إلا ثلاث فتيات إحداهن بيضاء قد لبسن فساتين محتشمة لكنها لا تنطبق من بعيد ولا من قريب مع أزياء القبيلة البدائية، وقد أمرتهن بالتحرك معنا كما أمرتهن بتغطية وجوههن وعدم الكشف عن هوياتهن لأي أحد نقابله أيّاً كان حتى نصل إلى قصر السلطان. حتى لا نقابل بعض المتاعب من أهل القرية ممن فقدوا بناتهم.

سقنا الكاهن بيننا وقد ضعفت مقاومته إلى حد كبير.. وبدأ تدريجيّاً يعود إلى طبعه المخادع وهو ينزل من الجبل وكلما هبط هبطت معنوياته وبدأ وجهه يتلون بلون الثعبان، ويقدم اعتذاراته المتتالية للأمير ويعده بأن يصحح كل أخطائه ويقدم للسلطان والقبيلة تعويضاً كبيراً عما فعله بشأنهم.

سرنا ساعة ونصف الساعة كنا فيها في غاية الإجهاد لولا أن بداخلنا جذوة النصر التي كانت تدفعنا. وما أن وصلنا إلى أسفل الجبل حتى كانت المفاجأة الكبرى، لقد استقبلنا مئات القرويين وهم يحملون الهراوات والرماح ويهتفون بأناشيد غريبة.

تغيّر وجه الأمير والتف حراسه حوله ببنادقهم، قلت بقلق:

- ما بك؟.

قال:

- الوضع غير مطمئن، الناس ثائرون وأخشى من العواقب.

قلت:

- بل لعلهم يستقبلوننا فرحين بما أنجزناه.

نظر إليّ بوجه شاحب وقال:

- لا أظن ذلك.

توقفنا واقترب الثائرون ينشدون وإذا بـ(لارو) ورمحه فوق عاتقه يهزه بيده في مقدمتهم. وتقدموا إلى الكاهن فانتزعوه من بيننا بعنف دون أن يكلمونا ونظرات الحقد تقطر من عيونهم نحو الأمير.

لجأت أنا والأمير والحراس إلى قرب شجرة كبيرة في جانب الطريق، وقبضتي ما زالت ممسكة ببندقيتي، فيما بدأ الناس يضربون الكاهن بعصيهم وهو يسير يتعثر بينما يمنعه آخرون، وهو يصيح من الألم ثم غابوا به بين الزحام.

امتقع لون الأمير بل كان يرجف من الخوف.

وفيم نحن ننتظر انصراف الناس لنكمل مسيرنا إلى قصر السلطان إذ عاد إلينا (لارو) وقد تلبس بهيئة الثائر الغضبان ووجه حديثه لي:

- صديقي العزيز، أيها البطل الأبيض، أرجوك أن ترحل بأسرع طريقة ولو سيراً على الأقدام، كم أتمنى أن أملك وسيلة نقل تقلك إلى أي مكان آمن، لكن كما تعرف كان السلطان والكاهن يتّبعان فينا نصيحة القائل: جوّع كلبك يتبعك. ونسيا بأن هذا المثل لم يعد ينفع حتى في الكلاب الحقيقة. لأنها إذا جاعت ستعود فتنهش من لحم صاحبها.... أتمنى أن أقابلك بعدما تنتهي هذه المشكلة التي أتوقع أن تطول.

ثم نظر إلى الحشد الذي يبتعد واستأنف: أما الكاهن فاطمئن فسوف يلاقي من العذاب أشد ما كان يذيقه الناس. ولسوف تقع عيناه في عيني حيته المقدسة.

ثم ابتسم ابتسامة غريبة في وجه الأمير فهمت أنها ابتسامة تهديد ثم صافحني وانصرف.

أدركت بأن الثورة الشعبية قد قامت، وأن الأمير قد خسر بحماقته وحماقة أبيه سلطانهم. لقد تعاملوا مع شعبهم كقطعان ماشية، واستعلوا عليهم، وقدموا الأغراب وأبعدوهم، وتقدسوا في القصر وقلدوا الحكم نصاباً باسم الدين فتسلط على أموال وأعراض الناس حتى إذا سيطر على كل شيء عاد إلى أموالهم وأعراضهم المقدسة.

لم أكن خائفاً على (نارون) أو على السلطان فليذهبا إلى الجحيم، لكني أصبحت خائفاً على نفسي وشيء قليل على (نارونا) فأي ثورة مهما كانت نزاهتها أو بياضها فإنها ستذيق الناس شهوراً أو سنين من الخوف والفوضى والقتل.

وصلنا القصر وقد زاد ألم جرحي لكن الخوف أنسانيه.

❊ ❊ ❊

وصلنا إلى القصر قبيل المغرب فوجدنا خمسة من الحراس المسلحين بالبنادق الرشاشة عند الباب ففتحوا لنا الباب الصغير وعلى وجوههم قلق بالغ. استقبلتنا (نارونا) خائفة وفرحت بنا فرحاً شديداً، لكن الأحداث المتسارعة أفسدت فرحة نجاتها في القصر، زرنا السلطان المريض في غرفته فكانت الحمى ترعد جسده النحيل، لم تعد في نفسي عليه شفقة بعد حكمه القاسي عليّ والذي قذف بي إلى فم الحيةً، وبعد انكشاف فضائح الكاهن الذي سلطه على أعراض ورقاب الناس.

أعطيته حبة مسكن وعدت إلى غرفتي أطلب الراحة والنوم، أداوي جرحي الذي لم يكن عميقاً، رميت بملابسي التي تمزقت وتلطخت بالدماء، وبعد صلواتي هدأت روحي وسلمت عيني للنوم فأطبقت لكنها أطبقت على كوابيس وأهوال كأني لم أنته بعد منها في النهار.

وما إن انتصف الليل حتى أيقظتني أصوات طلقات ناريّة جاءت من ناحية باب القصر فأشرفت على وجل من النافذة وسألت الحارس الداخلي عن ماذا حصل فقال:

- هناك تجمع كبير لبعض الأشقياء وأراد بعضهم أن يدخل عنوة فهددناهم بإطلاق النار.

أيقنت بدنو الثورة وأنها لو اشتعلت فسوف تحرقني معهم، فعزمت على الرحيل صباحاً ولو على حصان الأمير إن كان شهماً يعطيني إياه،

أو الالتجاء إلى بيت (لارو) فقد يكون أكثر أمناً من هذا القصر.

* * *

أشرقت الشمس ورأيت الناس يتجمهرون أمام القصر وكأنهم مدعوون لعرس جديد لكن هذه المرة يحملون هراوات ورماحاً .

يا رب سلّم سلّم .. واقترب الظهر وبلغت القلوب الحناجر..

خرجت من غرفتي لأستطلع الأمر من القصر، فلقيت (نارون) وقد امتقع لونه، فلما رآني قال:

- أرأيت ماذا فعل صديقك؟ ... إنه هو الذي شجع الناس على هذا العصيان.

قلت ساخراً:

- من تقصد؟ الذي تقول عنه إنه حشرة رغم ما قدمه لك؟ ها هو ذا الحشرة يقلب عليك الدنيا، ألم تسمع ما قاله الشاعر العربي:

لا تحقرن صغيراً في مخاصمة إن البعوضة تدمي مقلة الأسد

نظر فيّ وقد ضيق في عينيه وقال بصوت هادئ عميق:

- أتدري يا إبراهيم؟.

قلت مستفسراً:

- ماذا؟.

- لقد بدأت أشك في أنك أنت من دبَّر هذه الثورة، فلطالما تدخلتم أيها الأجانب في شئون غيركم، وسببتم الفوضى والقلاقل بزعم الإصلاح والتغيير. ولكن صدقني لو اكتشفت أنك أنت من حرّض على هذه الثورة فلن تفلت من يدي.

نظرت إليه وقلت في نفسي: مسكين أنت يا (نارون) ستموت وأنت لا ترى إلا شبراً أمام عينيك. ومع هذا فقد خفت كثيراً من هذا التهديد.

ثم قلت له:

- صدقني لم يكن لي في هذه الثورة أي يد، ولا تخدم أهدافي التي جئت من أجلها، ولكن نصيحتي أن لا تقوموا بأي حماقة ولا تقتلوا أو تجرحوا أحداً وأرسلوا إلى عقلائهم وفاوضوهم.

- نفاوضهم! ... نفاوضهم في ماذا؟ ... هم شعبنا ويجب أن يخضعوا لأوامرنا ... إنهم يفهمون هذا وقد تربوا عليه. السلطان هو إلههم ابن إلههم.

أطلقت ضحكة لم أستطع كتمانها، إله؟!

- أما زلت تقول إلـه؟! مصيبتكم أنكم تكذبون ثم تصدقون كذباتكم.

- لعلك نسيت نفسك يا إبراهيم.

- لم أنس نفسي بل أنتم الذين لا تريدون أن تتذكروا أنفسكم. حتى في أحلك الظروف.

(نارون) .. إنكم تنسون أن الناس ذوات مستقلة، وتنسون أن الفضل لهم في تمكينكم من حكمهم، وتقديمكم على أنفسهم، رغم أنكم استعبدتموهم واستعبدتم عقولهم ردحاً من الزمن. تعتقدون بأن الله قد منحكم حقّاً أبديّاً مقدساً للتسلط عليهم.... إن كنتم تريدون الحياة ففاوضوهم وهذه نصيحتي.

ثم دخلت غرفتي وأغلقتها على نفسي، وجمعت أهم ما جلبته معي ثم تمددت على السرير وقربت بندقيتي من حجري، فقد زاد الخطر، ومكثت أفكر في الأمر.

أغمضت عيني قليلاً فسمعت في المنام أبواق سيّارات غابت عن مسامعي أياماً ثقيلة، انقلبت إلى جانبي الآخر، إنه حلم ... لكنني لست نائماً، استمرت الأبواق فاستيقظت وقمت إلى النافذة فارتفقتها ونظرت إلى الساحة فإذا بسيارتين عسكريتين مسلحتين قد أقبلتا إلى القصر، فعلمت أن الحكومة قد أرسلت قوة تحمي السلطان.

نزل من السيارتين عدد من الجنود المدججين بالسلاح وتوجهوا إلى الباب ففتح لهم ودخلوا القصر، لم أخرج إلى صالة استقبال الضيوف التي ارتفع فيها الصوت، لكن حماية السلطان وأسرته لم تعد مهمتي، فقط كنت أريد أن أتدبر أمري للخروج من هذه الفوضى التي ربما تعصف بي مع هؤلاء القوم الذين اتسعت الهوة بيني وبينهم بعدما ضاقت.

دقائق قليلة وطرق باب غرفتي، فتحت الباب فوجدت (نارون) عنده فقال وهو يظهر لي عدم اكتراثه:

- جنود الدولة في الأسفل في انتظارك ومعهم (آدم) ويريدون اصطحابك.

فوجئت بهذا الخبر السار، لم أتردد ولم أستفسر أكثر، عدت والفرحة تملأ جوانحي فحملت حقيبتي وحقيبة (آدم) وأخذت البندقية معي وخرجت من الغرفة مسرعاً.

وجدت (نارونا) في الطريق وقد ظهر لي أنها كانت تبكي، فمسحت دمعها وهي تبتسم لي ابتسامة رقيقة حزين، وقفت وسلمت عليها وقلت:

- كيف حالك يا (نارونا)؟.

- أنا بخير لولا أنك ستغادر وأبي مريض جدّاً.

- أنا آسف جدّاً لما حصل ... لكن يبدو أن مهمتي انتهت.

- أشكرك يا إبراهيم على كل ما صنعته لي وأرجو أن لاتنسانا.

أومأت برأسي مع عبرة خانقة وودعتها بنظرة حانية، ثم توجهت إلى حيث ينتظرني الرجال.

استقبلني (آدم) وأخذ حقيبته وهو يبتسم لي ابتسامة فخر وغرور، أقبل أحد الجنود فحمل حقيبتي مني. وبينما كان الأمير يرقبنا قال بصوت هادئ:

- ألا تدع بندقيتنا لنا يا إبراهيم؟ فقد تكون حاجتنا لها أكثر من حاجتك.

عدت إليه معتذراً ثم مددتها له وعانقته وشكرته على كل الأيام الجميلة التي قضيتها معه، فبادلني الشكر .

ولما أردت الانصراف من عنده نادتني (نارونا) ثم أقبلت إليّ متثاقلة وقد امتلأ محجرا عينيها بالدمع ثم وقفت أمامي وهي تنظر في عيني ومدت يدها لي بشيء يلمع وضعته في كفي وأغلقت كفي عليه بكفها الأخرى، ثم انصرفت بسرعه وأنا أسمع نشيجها.

لحقت بالجنود الذين ينتظرونني عند الباب، و(آدم) يشرح لي

كيف انصرف من قصر الكاهن أثناء المعركة وتوجه إلى السفارة ليلاً وهي بدورها طلبت من الحكومة المحلية إنقاذي. وهنيئاً لشعب حكومته مثل حكومتي.

وها أنا ذا قد عدت إليكم وأنا متشوق إلى الحرية والحضارة واحترام العقل.

لقد كانت تجربة فريدة من نوعها .

ثعالب الكُهّان

في بلاط السلاطين

قال لي بنبرة مراوغة ذكية: الشعب كله يقدس الكاهن .. يجب أن يقدسوه ما دام السلطان يقدسه .. هو لم يأتِ من فراغ إنه أتى ضمن سلسلة طولها مائة عام.. إنه الحارس الأمين على ضريح مولانا العظيم.. وهو السبيل المقدس الذي به نصل إلى شفاعة مولانا الأوحد. لكن له حدوداً معينة في القداسة بالنسبة للسلطان وذريته. نحن - أسرة السلطان - نقدره كثيراً ونصدقه فيما يخص الآلهة والأرواح. لكن تقديره يجب أن لا يزيد على قداسة السلطان. لدينا وصايا من الأجداد أن له حق الطاعة والتقدير وخاصة في هذه الأمور ولا نعصيه أبداً وإلا سوف تحل اللعنة على السلطان والقبيلة. وقد لفت انتباهي تناقض الفكر عند الأمير. فالكاهن بالنسبة للقصر خادم وبالنسبة للشعب قديس. وبالنسبة للألوهية إله بلا تنصيب. ولكن هذا هو الفارق.

د. عبد الكريم عائض الشهراني



